أسطورةَ اليوم الثامن

© حقوق الطبع محفوظة

اسم الكتاب: أسطورة اليوم الثامن
مراجعة لغوية: رنا أبوالغيط
تأليف: م. هيثم راشد
تصميم داخلي: سالم عبدالمعز سواح القطع: 21X14
الناشر: دار الزيات للنشر والتوزيع سنة النشر: 2025

تم الإيداع بدار الكتب والوثائق المصرية برقم: 28786 / 2025
الترقيم الدولي (ISBN): 978 - 977 - 844 - 666 - 1

دار الزيات للنشر والتوزيع
المشهرة قانونًا بسجل تجاري رقم/ ٤٩٣٥١

ت: ٠١٠٦٦٧٣٦٧٦٥ - ٠١٠١٥٧٦٦٠١٤ / shahnda71@gmail.com

ISBN 978-977-844-666-1

أسطورةَ اليوم التاسع

تأليف

م. هيثم راشد

-

الإهداء

إلى من أحبّوني على طريقتهم،

وخافوا عليّ حتى من نفسي،

لم يعرفوا أن الطريق الذي يخشونه عليّ،

هو الطريق الذي يجعلني أعود إليهم حقًا.

إليكم، مهما ابتعدتُ عنكم، ما زلتم جذر الحكاية التي أنبتت هذا الألم الجميل.

إلى الأخوين (بلال ومحمود) اللذين شاركاني التيه،

حين كانت الوحدة جمرًا، والنجاة سرابًا، كنتم الغفران الذي عبر بي النار دون أن أحترق.

وإليكِ...

يا من كنتِ الحرف الأول في هذا الجحيم،

والظلّ الأخير في ذاكرة النار،

لا أدري إن كنتِ الخطيئة التي كتبتني،

أم الخلاص الذي تأخّر كثيرًا.

-

المقدمة

إن الليل يهبط على العالم ككفن أسود، يبتلع كل ما فيه من نور وأمل. ففي أعماق كل إنسان، حيث لا تصل الكلمات، تسكن الخطايا. ليست الخطايا كائنات تعيش خارجنا، وليست شياطين تطارد أرواحنا من الأفق البعيد، بل هي نحن، أو لنقل: هي الجزء الأكثر صدقًا فينا، جزء لا يخجل من الاعتراف.

الخطايا السبع ليست سوى انعكاس لبؤسنا اللامحدود: الغضب، الجشع، الكسل... سبعة أبواب تفتح إلى هاوية لا نهاية لها، وكل باب يحمل اسمًا لا يمكن محوه إلا بالدموع أو بالخطيئة نفسها. لكن من كان ليصدق أن هناك بابًا ثامنًا، خطيئة أخرى، لم تُكتب في سفر الحياة، ولم تُذكر في وصايا الآباء؟ خطيئة لا تشبه غيرها، تأتي في اليوم الثامن، حين تتعب الأرواح من الدوران في دائرة السبع، وتطلب خلاصًا لم تعرفه من قبل.

ما الخطيئة الثامنة؟ أهي خلاص أم لعنة جديدة؟ أهي ولادة جديدة للعالم أم نهايته؟ عندما تتجسد الخطايا في شخصيات حية، تروي حكاياتها وتصارع وجودها، سيكتشف الجميع أن اليوم الثامن ليس خاتمة فحسب، بل بداية.

في هذا العالم، حيث كل خطيئة لها مكانها، وكل إنسان يحمل عبء ضعفه، يبقى السؤال معلقًا كالسيف فوق رقاب الجميع: هل يمكن

للخطيئة أن تكون الخلاص؟ وهل يمكن أن ينبثق النور من أعماق الظلام؟

فلنبدأ الحكاية، ولنترك الإجابة للمطر الذي يغسل الأرواح في اليوم الثامن.

الفصل الأول: اللقاء

في مدينة قديمة منسية بين أحضان الزمن، كانت الأزقة الضيقة تتلوى كأفعى بين البيوت المتهالكة، والأبواب الخشبية المكسورة تئن تحت وطأة الرياح الباردة التي تهب من نوافذ بلا زجاج. في أطراف هذه المدينة، حيث صمت ثقيل يحجب الصوت ويخفي كل أثر للحياة، عاش عجوز وحيد، مبتعدًا عن الناس، متجنبًا النظر في أعينهم، وكأنها تحمل أسرارًا لا يُسمح له بمشاركتها.

العجوز لم يكن مجرد رجل مسن، بل كان حاملًا لذكريات غامضة، آثار الأيام الثمانية التي غيّرت مجرى المدينة إلى الأبد. أيام حملت الخطايا في طياتها، حتى أصبحت أسطورة مخيفة تتناقلها الأجيال، وأصبحت المدينة نفسها تلهث تحت وطأة صدى تلك الأحداث. كان العجوز يعلم أن هذه الأيام لم تُنسَ، وأن لعنتها ما زالت تنتظر من يُوقظها من سباتها العميق.

في صباح رمادي، بينما كانت أشعة الشمس تتسلل بخجل بين المباني، ظهر سامر، شاب في مقتبل العمر، يحمل قلبًا مثقلًا بالأسئلة والمشاعر المتشابكة. لم يكن يعرف كيف يواجه نفسه، لكنه كان متأكدًا من شيء واحد: أنه بحاجة لمعرفة الحقيقة عن مشاعره، وفهم هذا الحب الغريب الذي انتشرت له شائعات في قلبه قبل أن يعرفه جسده.

كانت الفتاة التي أحبها بالنسبة له أكثر من مجرد اسم أو وجه؛ كانت لغزًا لا يُحل، شعورًا يشتعل في داخله، يختلط بالخوف

والرغبة، ويثير في قلبه رغبة غامضة في مواجهة المجهول. ومن بين كل الناس في هذه المدينة، كان يعرف أن العجوز، عمه الوحيد، هو الشخص الذي يمكنه أن يرشد قلبه الضائع، الذي يحمل في ذاكرته أسرار الأيام الثمانية.

وصل سامر أخيرًا إلى أطراف المدينة، إلى الكوخ القديم الذي لا يجرؤ أحد على الاقتراب منه. كانت الأشجار العارية تحيط بالمكان، وفروعها تتشابك في سماء رمادية، وكأنها تحاول منع أي دخيل من الوصول إلى الداخل.

طرق الباب بحذر، وخفق قلبه كطبول الحرب، بينما صدى خطواته يتردد داخل الحجرة الصغيرة. فتح الباب ببطء، ليطل وجه العجوز المجعد، وعيناه تحملان بقايا ضوء لم يعد يشع إلا في الذكريات.

الملامح المحفورة في وجه الفتى أثارت في قلب العجوز ذكريات بعيدة عن أخيه الصغير، وجعلت قلبه يتوقف لوهلة.

العجوز نظر إليه بصمت، ثم قال بصوت هادئ ومهتز: "أنت... ابنُ نبيل، أليس كذلك؟"

أجاب سامر، وقد ارتجف صوته قليلًا: "نعم، عمي. أعتذر على الإزعاج، لكنني أتيت لأنني... لا أعرف كيف أقولها.... أحببت فتاة، وأعلم أنك الوحيد الذي قد يساعدني على فهم مشاعري."

ابتسم العجوز ابتسامة حزينة، وعيناه بدأت تحدقان خلف سامر، إلى مكان لا يراه إلا هو. هناك، بين الظلال، لم يكن مجرد فراغ، بل

كائن مظلم يحيط بالفتى، كظل يمزج بين الجمال والدمار، بين الإغراء والخطر. بدا وكأنه يتبع سامر منذ سنوات، يراقبه بصمت، وينتظر تلك اللحظة.

تراجع العجوز بخطوات ثقيلة، وكأن كل خطوة تعيده إلى ذكريات الألم والمعاناة. جلس على كرسي قديم، صوته يهتز وكأنه ينكسر تحت وطأة الذكريات، وكتفاه يرتجفان مع كل نفس.

"آه، يا صغيري..." همس بها، ودموعه بدأت تنساب ببطء على وجنتيه. "الحب... الحب لا يأتي بلا ثمن. لقد رأيت كيف دمر أرواحًا لا حصر لها. لا أريد لك أن تعاني كما عانى آخرون..."

وقف سامر للحظة، يراقب عمه، يحاول أن يلتقط أي إشارة عن الخطر الذي يلوح في الجو، عن الأسرار المدفونة في هذا الكوخ.

الهواء بدا ثقيلاً، كما لو أن الجدران نفسها تحمل ذكرى الألم، وكنت تستطيع سماع همسات الأيام الثمانية في صمت المكان.

العجوز مد يده نحو شمعة صغيرة على الطاولة، أضاءها ببطء، وأشعلها كأنه يوقظ الماضي إلى الحاضر. نور الشمعة اهتز على وجنتيه، وكأنها تعكس ذكريات لا يمكن محوها، صراعات وخيبات وأحداث غامضة لم يسمع عنها أحد منذ زمن.

"تعلم، أيها الفتى..." بدأ العجوز، صوته أصبح أكثر جدية، "أن الخطايا ليست مجرد أفعال نخاف منها، بل ظلال تعيش داخلنا.

والخطيئة الثامنة... لم تُذكر في الأساطير القديمة، لكنها موجودة.

وأحيانًا، تكون المفتاح لها، أو الفخ الذي يسقط فيه كل من يجرؤ على الاقتراب..."

وقف الكائن المظلم وراء سامر للحظة، لم يُكشف بعد عن طبيعته بالكامل، لكن الشعور بالتهديد كان ملموسًا، كنسيم بارد يلف المكان ويجمد القلب.

سامر شعر بقشعريرة، لكنه لم يتحرك، لأن الفضول كان أقوى من الخوف، والرغبة في فهم قلبه، في مواجهة الغموض، كانت تدفعه نحو الحقيقة، مهما كانت مظلمة ومخيفة.

وهكذا، في هذا الكوخ المنسي، عند أطراف مدينة تحتضن ذكريات الألم والخطايا، بدأ فصل جديد من الأسطورة، حيث الحب، الغموض، والظلال المظلمة تتشابك في انتظار من سيكتشف أسرار الأيام الثمانية... ومن سيجرؤ على مواجهة الخطيئة الثامنة.

الفصل الثاني: الذكريات المظلمة

جلس سامر على حافة الكرسي الخشبي المهترئ في كوخ العجوز، يتأمل تفاصيل المكان وكأنه يدخل إلى قلب ذكريات مخفية منذ وقت ليس بقليل. كانت الجدران مغطاة بصور قديمة، وأرفف صغيرة مليئة بكتب متربة، بعضها قديم لدرجة أن أوراقه بدأت تتقشر في الهواء البارد. كانت الرائحة مزيجًا من الخشب المحترق، والغبار، ورائحة الماضي التي لا تختفي أبدًا.

جلس العجوز مقابله، ظهره مثقل بالسنين، وكتفاه المنحنيتان تحكيان عن صراعات لا حصر لها.

سكت للحظات، وكان صمت الكوخ يتسرب إلى أذني سامر كهمسات من عالم آخر، كأن المكان نفسه يعي أن أسرارًا عظيمة على وشك الانكشاف. ثم، بصوت متهدج، وكأنه يقطّع الكلمات من أعماق قلبه:

"إذن... قد حان الوقت. سأروي لك كل شيء."

بدأ الكلام ببطء، وكأن كل كلمة تحمل وزنًا.

"كانت الأيام... الأيام الثمانية... أيامًا غُرست في قلوبنا كبذور الألم. كل يوم كان يحمل خطيئة، كل لحظة كانت تحمل فقدانًا، وكل خطوة كانت تأخذنا أقرب إلى حافة لا نهاية لها."

أغلق العجوز عينيه للحظة، وظهر على وجهه تعبير الألم العميق، يستحضر شبح الماضي. ثم بدأ يحكي، وذكرياته تتدفق كما النهر الهائج.

"لقد فقدت شقيقتي الحبيبة..." قالها متألمًا، "عمتك جميلة"، وكأن النطق باسمها يقطع أوتار قلبه. "كانت الأخت التي أحببتُ أكثر من أي شيءٍ في العالم... ثم حدث ما لم يكن في الحسبان يومها أنا.... وصمت..."

وقف سامر، مشدوهًا، وعيناه تتسعان دهشة. يسمع لأول مرة عن عمته. لقد سمع عن الأسطورة التي تحدث عنها الناس، لكنه لم يتوقع أن يكون الألم شخصيًا لهذه الدرجة. شعر فجأة بأن الدم الذي يجري في عروقه ليس مجرد دم، بل ميراث من مأساة قديمة تنتظر أن تعيد نفسها.

"أما الآن..." أكمل العجوز، وصوته يرتجف قليلاً، "ها أنت تقف أمامي، تحمل نفس الدم، نفس الميراث. وخوفي أن التاريخ يعيد نفسه... وأن قلبك، كما قلوب من سبقوك، قد ينجر إلى نفس الفخ."

ارتجف سامر، وشعر بالقشعريرة تسري في جسده. كان يريد أن يعرف كل شيء، أن يغوص في أعماق الأسطورة، أن يرى الحقيقة خلف كل كلمةٍ تُنطق بصوت العجوز المرهق.

"أرجوك، عمي..." قال سامر وهو يمد يديه بتوسّل، "الجميع يتحدث عن الأسطورة، لكن لا أحد يعرف التفاصيل. أخبرني، ما الذي حدث حقًا؟"

نظر العجوز إلى سامر، وكأن عينيه تبحثان عن صبره، عن قدرة قلبه على تحمّل ما سيأتي. ثم أومأ ببطء وقال: "ستسمع الحقيقة، لكن كن مستعدًا... الحقيقة ليست خالية من الألم، والحب ليس دائمًا مفتاحًا للنجاة."

العجوز أخذ نفسًا عميقًا، وبدأ سرد ذكرياته، مشهدًا مشهدًا، كما لو أنه يرسم أمام سامر لوحة مأساوية.

"أتعلم، يا فتى..." قال العجوز، ويداه ترتجفان قليلًا على الطاولة، "كل خطيئة تبدأ في الداخل. الغضب، الجشع، الكسل... كل واحدةٍ كانت لها طريقة لتسري في قلوب الناس، لتدمر العلاقات، لتترك فجواتٍ لا تُملأ. ولكن ما لم يعرفه أحد... هو الخطيئة الثامنة. لم تُذكر في الأساطير، ولم تُكتب في الكتب القديمة، لكنها موجودة... تنتظر في اليوم الثامن."

جلس سامر صامتًا، يتنفس ببطء، يحاول استيعاب كل كلمة. شعر بأن قلبه يخفق أسرع، وأن كل ما سمعه حتى الآن لم يكن سوى البداية. لكنه شعر أيضًا بشيءٍ آخر... فضول لا يُقاوم، ورغبة جامحة لمعرفة المزيد، لمعرفة كيف يمكن لهذا الماضي أن يغيّر

مستقبله، وكيف يمكن للحب، وللخطايا، ولأسطورة الأيام الثمانية أن تصنع مصيره.

وفي هذا الكوخ القديم، تحت سقف يئن من عمره الطويل، وبين جدران مليئة بالذكريات والغبار، بدأ سامر رحلة غوصه في الماضي، رحلة مواجهة الأسرار، مواجهة الخطايا، ومواجهة الخطيئة الثامنة التي تنتظر اللحظة المناسبة للظهور، لتكشف عن نفسها لأول مرة في هذا العصر، لأول مرة منذ أن خُطفت المدينة نفسها إلى هاوية الألم.

الأيام الثمانية

اليوم الأول

الفصل الأول: ليث

كان العالم مظلمًا، كما لو أن الشمس نفسها تخجل من إلقاء ضوءها على مدينة ميراج. المدينة الكبرى، العظيمة في حجمها، لم تكن أكثر من سجن، حيث تمتد الأبنية كجدران قاسية تحجب السماء، وتحيط بالأزقة الضيقة المليئة بالغبار والأصوات المكتومة. كل شيء هنا كان يئن تحت وطأة الظلم والفساد، تحت حكم قاسٍ لا يعرف الرحمة، حيث لا مكان للحرية، ولا حتى لأبسط أشكال الأمان.

في هذا العالم الموحش، كان هناك شاب يُدعى ليث. كان في الثلاثين من عمره، لكنه شعر طوال حياته وكأنه لم يتجاوز عمر الطفل الضائع. نشأ في قرية فقيرة امتداد للمدينة، بلا هوية، بلا جذور يمكن أن تستند إليها روحه. فقد والديه في حادث سيارةٍ مروّع وهو لا يزال صغيرًا، تاركين فراغًا عميقًا لا يستطيع أحد ملأه.

بعد الحادث، انتقل ليث للعيش مع عمته، امرأة قاسية لا تعرف الرحمة، لا تعرف الدفء. كان بيتها عبارة عن سجن صغير، حيث الصراخ كان لغة الحياة اليومية، والضغط النفسي كان الهواء الذي يتنفسه الجميع. لم يكن هناك مكان للحب أو الحنان. كل لحظة

في هذا المنزل كانت درسًا في الوحدة والخوف. كبر ليث وهو يشعر بأنه عبء، ضغط شديد أشعره بأنه غير كافٍ دائمًا، وكأن العالم نفسه يتآمر ضده، وكأن كل شيء جميل اختفى من حياته نهائيًا. مع مرور الوقت، تضاعفت وحدته. كل يوم كان يزداد شعوره بالعجز، بالإحباط، وبأن العالم قد خذله بالكامل. كانت ذكريات أيامه مع والديه تزوره أحيانًا في المساء، كأشباح لطيفة تحمل طيف الحب والحنان الذي فقده، لكنها تختفي مع بزوغ الشمس، تاركةً إياه ليواجه واقعه القاسي وحيدًا.

ذات مساء، وبينما كانت المدينة تغرق في صمت قاتم، شعر ليث بأن نفسه قد ضاقت به تمامًا. كل الألم، كل الإحباط، كل الخيبة، أصبح ثقيلًا لدرجة أنه لم يعد يستطيع تحمّله. كان يرى العمّة في غرفتها، مستغرقة في نومها المعتاد، "اليوم سأتخلّص من كل مشاكلي المتمثّلة في تلك الساحرة الشريرة." ذهب إلى المطبخ على أطراف أنامله، وأمسك بسكين. دخل إلى غرفتها، وقف أمام سريرها ورفع يديه مترددًا. آه من تلك اللحظات الفاصلة بين أن تتأقلم مع حياتك كعبدٍ مملوك، أو أن تكون حرًّا هاربًا بأي ثمن، اللحظات المشؤومة التي تأتي فيها الذكريات بقناعها المريح: "توقّف، لا تفعل، يمكنك أن تتخطّى، هي ستتغيّر، الصبر..." قلبه يخفق بشكل هستيري، يطرق صدره كما لو كان يحاول الهروب من جسده. يده المرتجفة أمسكت بالسكين، شعوره بالذنب يختلط بالغضب، والحنين يختلط بالرغبة في الانفصال عن كل شيء.

"تبًا..." همس لنفسه، "لقد تعبت. سأضع حدًّا لكل شيء الآن." لكنه لم يخطُ خطوة واحدة بعد.

أغمض ليث عينيه، وابتلع نفسه. كان يعرف أن اللحظة القادمة ستغيّر كل شيء. عندما فتح عينيه، كانت العمّة قد رفعت رأسها ببطء، عيناها تتسعان دهشة، كاشفتين عن لحظة الخطر الذي اقترب. صرخت، رمى السكين بسرعة، لكنه لم يجرؤ على توجيهها، كان تردّده أكبر من شجاعته. شعور بالضعف والغضب والندم اجتمع في قلبه، فابتعد عن المكان، يركض هاربًا في الأزقّة المظلمة، يلعن نفسه، يلعن ضعفه، يلعن كل لحظة من حياته التي أوصلته إلى هنا.

وفي تلك اللحظة، لم يكن يعلم أن العالم كان يراقبه. ظل غامض يختفي بين الظلال، يراقب كل خطوة، كل تردّد، كل نبضة قلب، ككائن أسطوريٍّ يتغذّى على الألم والضعف، ينتظر اللحظة المناسبة ليتدخّل.

وهكذا بدأ اليوم الأول، يوم ليث، الذي لم يكن مجرّد حدث في حياته، بل حجر الأساس لسلسلة من الأحداث التي ستغيّر مصير المدينة بأكملها. كل شعور بالغضب، كل رغبة في الانتقام، كل شعور بالعجز، كان بمثابة قطعة في بناء الخطيئة الكبرى، التي ستتوج في اليوم الثامن، حين يظهر الخلاص أو اللعنة التي لم يُكتب لها سابقًا.

الفصل الثاني: ندم وعذاب

هرب ليث إلى المدينة، تاركًا وراءه صدى الألم والذكريات المكبوتة، وهو يركض في الأزقة المبللة، حيث تعكس الحفر الصغيرة والمياه المترسبة في الطرقات أضواء المصابيح الخافتة، كأنها مرايا مشوهة لعالمه الداخلي. كل خطوة كانت ثقيلة، كل نفس يلتقطه كان محملاً بالهموم، والغضب، والحنين الممزق للطفولة، التي ذاق من حلاوة الطفولة قضمة، ومن المرارة وجبة كاملة.

جلس أخيرًا لاهثًا على أحد الأرصفة المبتلة، رأسه مائل إلى الأمام، عابسًا، وذهنه غارق في التفكير. "لماذا يجب أن أكون ضعيفًا؟" تساءل بحزن، وكأن المدينة كلها تستمع، وكأن كل شجرة وكل حائط شاهد على خيباته المتراكمة. "لماذا؟ أشعر أنني قطعة خشب رطبة، تحاول النار نهشها فلا تحرقها تمامًا ولا تتركها سليمة. أكره هذا الضعف... أكرهه كما يكره السجين قيوده، ومع ذلك... لا أستطيع إنكاره. إنه جزء مني، جزء كريه لكنه حقيقي." الليل كان يسحب معه صوت الريح بين المباني، وهمسات المدينة الميتة، وصدى خطوات المارة البعيدين. فجأة، شعر بشيء غريب: همس داخلي، كأنه صوت الريح يتسلل إلى أذنيه، هسيس غامض لم يعرف مصدره.

تلفت حوله مرتبكًا، لكنه لم يجد شيئًا سوى ظلاله الممتدة على الرصيف، وكأنها تحاكي شكله الداخلي المضطرب. "نعم... حان الآن وقت ثوران هذا البركان الخامد." همس لنفسه، والبركان النفسي بدا يتصاعد داخله بلا رحمة. "لا مزيد من الضعف، لا مزيد من الانكسار... سأتحكم في مصيري، ولو كان ذلك يعني حرق العالم بأكمله."

وبينما كان الليل يتعمق، بدأ ليث يلمّ أولى حلفائه من بين من يشبهونه، فكم هو سهل التقاط الصبية المطرودين من المدارس، الفقراء الذين لم يجدوا مأوى سوى الأزقة، العاطلون الذين ضجروا من الجوع والانتظار. كان جمع هؤلاء ليس صعبًا في مدينة تنهشها الفوضى والفساد من رأسها إلى قدمها، حيث يُباع القانون بثمن كأس رخيصة، وحيث تحكم الشوارع من يملك أقوى يد وأبرد قلب.

لكن ليث كان يملك شيئًا أثمن من السلاح: *الغضب*. غضب أسود، كوقود لا ينفد، يغذي كل خطوة يخطوها، وكل نظرة يطلقها على من يجرؤ على معارضته. سرعان ما أصبح أكثر شخص مكروه في المدينة، اسمه مرادفاً للفوضى والخوف، ظلًا لا يرحم، وقوة لا يمكن تجاهلها. ومع ذلك، لم يخمد البركان في داخله أبدًا. كان يعلم أن كل ما يفعله مجرد مقدمة لانفجار أكبر، كأنه ينتظر الشرارة التي ستشعل كل ما تبقى من خوف وهشاشة، لتتحول المدينة كلها إلى مرآة لغضبه المكبوت.

وذات ليلة، جلس في حانة مظلمة، رائحة المخمورين تملأ الجو وتعلق في أرجاء المكان، والأصوات المتداخلة من حوله لا تعني له شيئًا. شرب صمته، يحاول التوحد مع الظلام داخله، حتى التقطت أذناه حديثًا بين رجلين في زاوية الحانة، أصواتهما متقطعة وكأنها تعكس صدى ماضيه: "أتذكر ذاك السكير العجوز؟... الذي كان سببًا في تلك الحوادث قبل سنوات، نعم نعم، كم من طفل شرد بسببه، لكن دائمًا ما كان يخرج بسبب مركزه..." تجمد الدم في عروقه، وقلبه دق كما لو كان يحطم قفص صدره. إنه هو... الرجل الذي سرق منه والديه. لم يكن قاتلًا بدم بارد فحسب، بل سكيرًا مخضرمًا، مليئًا بالحوادث المميتة التي نجا منها الطفل الصغير ليث كما ينجو الفأر من المصيدة.

ثار البركان من جديد، كأنه حجر ضخم ألقي في جوفه. كل شيء اختفى أمامه: الأصوات، الحانة، كل شيء سوى ذلك الوجه المخمور وهو يضحك بصوت أجش، يثير في داخله كل ما تبقى من الألم والحنين الممزق للطفولة. قام، والسكون يسبق خطاه، كل حركة محسوبة، والسكين في جيبه كأنه دعوة قديمة للانتقام. تجاهل صرخات أصدقائه، تجاهل نظرات الحاضرين المذعورة، كان كمن يسير نحو قدر محتوم، وكأن كل خطوة تقربه من انفجار البركان الذي طال انتظاره.

قبل أن ينطق الرجل بكلمة، كانت الطعنات قد انغرست في جسده، واحدة تلو الأخرى، كأن سنوات ألم الماضي تجسدت في فولاذ حاد.

تناثرت الدماء، حارة ولزجة، على وجه ليث، لكنها لم تلوثه، بل شعر أنها تطهره، تغسله من كل مشاعر الضعف التي عاشها يومًا، كأن دمه الذي لم يُسل منذ طفولته يبدأ أخيرًا رحلة استرداد القوة المفقودة. الصراخ ملأ الحانة، العيون جاحظة، الخطوات تتراجع مذعورة، والأصوات تتداخل في مزيج من الرعب والفزع.

عندها فقط أدرك فداحة ما فعله. لم يكن الغضب حلًا، بل فخًا أكبر قاده إلى هاوية لم يعرفها من قبل. جلس للحظة، يتنفس ببطء، عيناه تتشبثان بالظل الغامض في الزاوية الذي لم يتحرك، لكنه كان يراقب، ككائن أسطوري، يختبر مدى جاهزيته للقادم. أدرك ليث أن هذا الفعل لم يحرره.

الفصل الثالث: هروب من الذات

هرب من موقع الجريمة، لكن الهروب لم يكن من العالم الخارجي، بل من نفسه. صرخة الرجل الذي قضى بين يديه استمرت تتردد في أذنه، كأنها نقش لا يمحى، كظل يتربص به في كل زاوية من زوايا المدينة. وجه الضحية ظهر في كل نافذة، في انعكاس، في الظلال المتراقصة على الجدران، وكأن روحًا لم تتحرر بعد، تنتظر اللحظة التي تتيح لها أن تبدأ مسرحيتها الأبدية.

ركض مجددًا كأنه ذلك الطفل وسط الأزقة المظلمة، أنفاسه تتقطع، والمدينة بأكملها بدت وكأنها دوامة سوداء تحاصره. لم يكن هناك أحد يلاحقه، أو ربما كان يظن ذلك، لكنه شعر أن كل مصباح يُغلق، وكل عابر مجهول يراقبه، كان شاهدًا على

جريمته، على يديه الملطختين بالدماء. لم يكن يهرب من الحانة وحدها، بل من جزء من نفسه الذي لم يكن يعرف كيف يتعامل معه.

جلس أخيرًا على رصيف مبتل، جسده منهك، قلبه يرفرف كما لو أنه يحاول الهرب من صدره. كل شيء يُعاد، يتكرر،

"تظن أنك خرجت من حلقة الحياة، فتكتشف فجأة أنك ما زلت هناك، فقط أنت الآن بعيون جديدة."

مشاعر القتل جديدة عليه، الروح التي قتلها تلاحقه الآن، كأنها انتظرت لحظتها المنشودة لتبدأ مسرحيتها التي لا تنتهي، وتتلاعب بالقاتل الذي يصبح دميتها إلى أن يموت، وبعد موته تهيم في الأرض حزينة.

لم يكن الغضب سوى قناع هش، ما إن سقط حتى انكشف تحته كل ضعف عمره الطويل.

مع مرور الأيام، بدأ يعاني أكثر. شوارع المدينة أصبحت متاهة بلا نهاية، كل زاوية تذكره بالحانة، بكل صرخة، بكل قطرة دم. مر يومان، وربما أكثر، وهو يتسكع، جائع، عطشان، يرتجف من البرد ومن الكوابيس التي لا تهدأ. حين وصل إلى أقصى درجات الانهيار، فقد السيطرة على جسده، حتى تبول على نفسه. لحظة الضعف هذه لم تكن النهاية، بل كانت مجرد تهيئة للجولة القادمة، وكأن الروح التي قتلها تعود لتخبره أن العذاب لم يبدأ بعد.

وفي أحد الأزقة المظلمة، أمام مرآة صدئة، نظر إلى وجهه. لم يتعرف على الشخص الذي أصبح عليه. عيناه كانتا خاويتين، شعره مبعثر، ابتسامته متشنجة، يداه ما زالتا تشعران بحرارة الدم. "من أنا؟" سأل بهمس.

كل ليلة، حين تغمض المدينة عينيها، يتوقف الزمن عند اللحظة المروعة. تصير المدينة كلها الحانة، والحانة تصبح قبرًا، والقبر... يصبح قبره هو.

الفصل الرابع: القرار

قرر أن يضع حدًا لمعاناته، فذهب من مخبئه متجهًا إلى

جسر القرية في ليلةٍ حالكة السواد. الصمت من حوله، والرياح الباردة تلطم وجهه، وكأنها تهمس له: "هذه النهاية..." لكنه لم يكن يخاف من الرياح، بل من نفسه. سنوات من الألم، الغضب، الندم، كل شيء تراكم داخله، حتى شعر أنه لا مخرج من هذا الجحيم، لا خلاص، لا نور.

نظر إلى الماء المتدفق تحت قدميه، انعكاسه الممزق يحدق فيه، كل تجعيدة في وجهه، كل دمعة لم تُبكِ، كل لحظة ضعف كانت هناك.

ثم التفت، ورأى روح المقتول تجثو على ركبتيها على سطح الماء، تتوسل بصوت خافت: "أرجوك... لا تفعل ذلك... ما زلنا في البداية... لا تتركني وحيدة. لقد وجدتني أخيرًا... أتريد التخلي عني بهذه السرعة؟" ليث لم يعرها اهتمامًا، لم يعد يستطيع العيش بهذا الثقل في قلبه. كان على وشك القفز، لكن فجأة، على سطح الماء، ظهر وجه مألوف كان قد اقترب من نسيانه... عمته. انعكاسها يرتجف مع الضوء الخافت. شيء غريب، لا يُصدّق، لكنه جعله يتردد للحظة.

الروح اختفت، وليث وقف في صمت، قلبه يدق بسرعة، جسده متصلب، كأنه على حافة لحظة فاصلة بين الموت والحياة.

عاد إلى المنزل، إلى حيث عاش طفولته المظلمة، إلى مكان يختزن ذكريات الألم والضغط النفسي، بعد سنوات من الغياب الطويل.

الهواء داخل المنزل كان ثقيلاً، رائحة العفن والعمر الممتد. لم يكن يعرف ما إذا كانت تلك المرأة التي رآها تجلس على كرسي متحرك، ضعيفة مريضة، هي نفسها التي عرفها في طفولته.

وجدها قد فقدت قدميها، وجسدها مرتعش، وعيناها مليئتان بالدموع والنحيب. لم تمهلها السنون فحسب، بل جلبت المرض والضعف.

وعندما رآه، حاولت التحرك ناحيته بسرعة لاحتضانه، فوقعت على الأرض، وبدأت تزحف نحوه بصوت متقطع: "أنا آسفة... آسفة يا ولدي... سأعوّضك... كنت صغيرة وغبية وغير مسؤولة... أرجوك سامحني..."

ليث سارت دموعه بلا توقف، قلبه قد بدأ يبطئ في ضرباته، جسده متحجر كأنه لا يرى شيئًا. وقف أمامها صامتًا، ببطء، ثم انسكب ألمه دفعةً واحدة، بدأ بطعنها، كل مرة يغمس السكين، كل مرة يغسل روحه من ألم الماضي، من الخوف والضعف الذي لطالما أرّقه.

دموعه اختلطت بالدماء، لم يعد يرى شيئًا سوى الدم حوله، قام من الأرض، ما زال السكين في يده، روبوت متحرك الآن، الجسد يتحرك، العينان لا تريان، القلب لم يعد يريد أن يضخ دماءً. العقل إلى الجسر، الجسر فقط. وصل، وعند الحافة بدأ شبح العمّة يظهر في الظلال، يقول له: "لن تكون لك فرصة..." لكن ليث لم ينتظر. وقفز.....

جلس سامر مذهولاً، عيناه متسعتان، وهو يحدق في العجوز الذي بدا وكأنه يحمل كل تاريخ المدينة بين خطوط وجهه المتجعدة. قلبه يخفق بسرعة، وعقله يعج بالأسئلة التي لم يجد لها إجابة. كل كلمة سمعها عن ليث، عن الغضب، عن الدماء التي سالت، أثقلت على قلبه كما لو كانت حجرًا ضخمًا يضغط على صدره.

الكوخ حوله كان صامتًا تقريبًا، إلا من صوت الريح الذي يقتحم النوافذ المهجورة، ويلعب بأوراق الكتب القديمة على الطاولة، كأن الماضي نفسه يحيط بهم، يهمس بالقصص المنسية. دخان المدفأة الملتف في الهواء البارد أضاف للغرفة شعورًا بالغموض، في هذه اللحظة، بين الحاضر والماضي، بين الحقيقة والأسطورة.

سار سامر بعينيه في أرجاء الغرفة، يتلمس أثاثها البسيط بعصبية، يشعر بثقل الصمت الذي يحيط بكلماته غير المنطوقة، وكأن المكان يستمع إلى أفكاره المتشتتة. شعر أن قلبه أصبح مرآة لما سمعه، كل دمعة لم تُبكِ من طفولة ليث، كل صرخة محبوسة

كانت تنعكس في روحه، تحثه على البحث عن الحقيقة، عن معنى، عن سبب هذه الخطايا التي تهز كل حياة.

أخيرًا، تمكن سامر من الهمس: "لكن... ماذا عن الأيام التالية؟ كيف سارت الأسطورة؟ وهل كان هناك خلاص في النهاية؟"

ابتسم العجوز بحزن، وكأن أسئلته جاءت في الوقت المناسب، وأضاف بعد صمت قصير: "يا فتى... ما حدث في اليوم الأول لم يكن سوى البداية. ليث كان أول ضحية من سلسلة الأحداث، لكنه لم يكن النهاية. هناك المزيد، أعمق وأظلم، وكل يوم يحمل خفايا جديدة، اختبارات للروح، للقلب، للضمير."

اقترب العجوز من سامر، وقال بصوتٍ متهدج: "اليوم الثاني... يحمل قصة لم تُروَ من قبل، رحلة إلى قلب الخطيئة الجديدة، حيث ستظهر وجوه أخرى للظلام، قوى لم تشهدها عيناك، وعواطف ستختبر قلبك كما لم يحدث من قبل.

استعد، لأن ما سمعته حتى الآن لم يكن سوى جزء صغير مما ينتظرنا."

جلس سامر بهدوء، يحاول استيعاب ما سيقال، ويشعر بشيءٍ من الخوف المختلط بالفضول. كل شيء هنا بدا وكأنه يحذر من القادم، من الأيام التالية، من الخطايا التي تنتظر بصبر في الظلال، لتختبر كل من يحاول الاقتراب من فهم الأسرار المدفونة بين الدماء والماضي. تنهد العجوز بعمق، وبدأ سرد اليوم الثاني، تاركًا سامر في

حالة من الترقب المشحون بالأسئلة والمخاوف، بينما الغرفة المظلمة حولهما تتحول إلى بوابة تعود بهما لماضي المدينة وأرواحها الممزقة، وكأن كل شيء على وشك الكشف عن أسراره.

اليوم الثاني

الفصل الأول: البدايات البريئة

في قلب المدينة القديمة، وُلدت صداقة لم تشبه غيرها. كانت البداية منذ الطفولة، حين اجتمع ثلاثة صغار في نفس الحي، وكلّ منهم يبحث عن نافذة خاصة يطل منها على العالم.

شادي، ذلك الفتى النحيل الذي وجد في الألوان ملاذًا من قسوة الحياة. كان يجلس في الزاوية الخلفية في منزل أسرته، حيث الصمت يملأ المكان: والده غارق في عمل لا ينتهي، ووالدته تجلس صامتة في ركن الغرفة، غارقة في اكتئابها كمن ينتظر شيئًا لن يأتي. هناك، كان شادي يرسم على الجدران القديمة بالطباشير وبقايا الألوان الرخيصة. لم تكن لوحاته جميلة بمعايير الآخرين، لكنها بالنسبة له كانت نوافذ سحرية تطل على عالم بعيد، عالمٍ يخلو من الصمت والخذلان. ومع كل خط يرسمه، كان يشعر بحماسٍ يشتعل في داخله، لكنه في الوقت نفسه يخاف من سؤالٍ يتكرر:

هل سأستطيع أن أحوّل هذا الشغف إلى حياة حقيقية؟

أما ليلى، فقد وجدت طريقها إلى الخلاص عبر الكلمات. كانت تملك دفترًا صغيرًا تمزقت أطرافه، تخفيه تحت وسادتها كما لو كان سرًّا خطيرًا.

لكنها لم تكن تكتب فقط لتعيش أحلامًا، بل كانت تحلم أن تُترجم هذه الأحلام إلى مجد واعتراف. أحيانًا كانت تغلق دفترها وهي تبتسم ابتسامة غامضة، تتخيل اسمها يعلو أغلفة الكتب، وصوت الناس يتهامسون بإعجاب: "ليلى... الكاتبة العظيمة." لم يكن كافيًا أن تكتب، بل كانت تريد أن تمتلك العالم.

في ليالي المدينة الصامتة، حين تهدأ الأصوات وتُطفأ المصابيح، كانت تشعل مصباحًا باهتًا وتبدأ بالكتابة. لم تكن تكتب قصصًا عادية، بل حيوات أخرى تعيشها على الورق: أميرة في قصرٍ بعيد، مسافرة عبر البحار، أو حتى طائرٍ يطير بلا قيد. كانت تهرب بين السطور من واقعها، لكنها في أعماقها كانت تخاف أن تبقى قصصها حبيسة الورق، أن لا يقرأها أحد، وأن تذوب مع أحلامها في صمت الليل.

وكانت تخاف أكثر أن ينجح غيرها قبلها، أن يلمع اسم كاتب آخر بينما قصصها تذبل في الظل. لم تكن تخشى النسيان فحسب، بل كانت ترتعد من فكرة أن يأخذ أحدهم مكانها الذي تؤمن في سرّها أنه حقها وحدها.

أما شريف، فكان صوته هو ثروته الوحيدة. لم يملك آلة موسيقية باهظة، لكنه كان يغني على سطح منزله القديم، يعانق صوته الريح المتسللة بين الأبنية العتيقة. كان صوته يحمل شيئًا من التمرد، كأنه يصرخ ضد كل ما يثقل قلبه. كان يغمض عينيه حين

يغني، كأنه يحاول أن ينسى ضيق الحياة وأن يفتح لنفسه فضاء أوسع. ومع ذلك، كان بداخله خوفٌ خفي: ماذا لو بقي صوته مجرد صدى في الأزقة، لا يسمعه أحد سوى نفسه؟

ثلاثة أصدقاء، لكل واحدٍ منهم جرحه السري، ولكل واحد نافذته الصغيرة على الحلم. ما جمعهم لم يكن الفن وحده، بل الأمل المشترك في مستقبل مشرق، مستقبل يتقاسمونه معًا، بعيدًا عن جدران المدينة التي تبدو وكأنها تنهار ببطء.

سنوات الصداقة ملأتهم بالطموح، وبدأ كل منهم يسير في طريق النجاح. حصل شادي على منحة لدراسة الفنون، وبدأت ليلى تنشر قصصها في مجلات محلية، ورغم ذلك، مع كل قصة تُنشر، لم تعد تشعر بالرضا كما في الماضي. النجاح الصغير لم يُشبعها، بل فتح في قلبها جوعًا جديدًا. صارت تقرأ أسماء غيرها في المجلات بغيظ مكتوم، وتقول لنفسها: "لماذا لا يكون اسمي وحده؟ لماذا أشارك المجد مع آخرين؟"

بينما غنّى شريف في حفلات صغيرة. ولكن مع النجاح، بدأ الشيطان ينسل بهدوء إلى قلوبهم. النجاح، الذي بدا في البداية وعدًا بالفرح، أصبح كنافذة على الظلام الذي يخفيه كل منهم في داخله.

الفصل الثاني: تشقق العلاقات

مع تزايد شهرة شادي في معارض الفن، بدأت ليلى تشعر بثقل التنافس. كان نجاحه يذكرها بفشلها الشخصي في تحقيق نفس التأثير في عالم الأدب. بدأت تسأل نفسها: "لماذا لا أصل إلى نفس النجاح؟ هل موهبتي أقل شأنًا؟ لو فقط تفشل لوحاته يومًا..."

تذكرت تلك الأمسية حين وصلها رد من دار نشر كبيرة. ظرف صغير، فتحته بيدين مرتجفتين، فوجدت بداخله كلمات جافة مطبوعة بالآلة الكاتبة: "نعتذر، عملك لا يناسب خطنا التحريري."

سقطت الرسالة من يدها، وبقيت تحدق فيها طويلًا كأنها تقرأ نعي حلمها. جلست أمام دفاترها الممتلئة بالقصص، وبدأت تهمس لنفسها: "لماذا لم يستطع أحد أن يرى الجمال في كلماتي؟"

ومنذ ذلك اليوم، صار كل معرض يشارك فيه شادي جرحًا جديدًا في قلبها. كانت تقف أحيانًا بين الحضور، تسمع التصفيق يعلو للوحاته، وتشعر أن كل يد تُصفّق هي سهم ينغرز فيها. شيئًا فشيئًا، تحولت تلك الأفكار إلى نار تلتهم ما تبقى من الثقة التي كانت تجمعهما.

وفي نفس الوقت، شعر شريف بالقلق من فقدان مكانته بين أصدقائه. لكنه كان يجب أن يعلم أنه إذا بدأت بالقلق من

أصدقائك، فهذا دليل دامغ أنك خسرتهم إلى الأبد، ولا حل لذلك. اعتقاده أن موهبة شادي ستسرق الأضواء جعله يبدأ بالسعي لجذب انتباه الجميع من خلال تنظيم حفلات موسيقية كبيرة.

الفصل الثالث: الفجوة

بينما كان الجميع يسعى للنجاح بطريقته الخاصة، بدأت الفجوة بينهم تتسع. رغم أنه من المفترض أن يكون هذا وقت الصداقة الحقيقي، فهو ما تنتظره الصداقة لكي تتلألأ في الآفاق، لكن الرفاق آثروا أن هذا وقت تشييعها.

شادي انغمس في عالم الفن بشكل متزايد، تاركًا أصدقاءه خلفه دون أن يشعر. ليلى، التي كانت قد اعتادت على مشاركته تفاصيل حياتها، بدأت تتراجع، تغرق في خضم أفكارها الخاصة، تكتب قصصًا عن أبطال يسقطون تحت وطأة الغيرة والخيانة.

أما شريف، فكان يحاول بكل الطرق أن يبقى في دائرة الاهتمام، ينظم حفلات موسيقية أكبر ليجذب الأضواء. لكنه لم يكن يفعل ذلك فقط لتحقيق حلمه، بل كان يحاول بشدة إعادة الصداقة إلى ما كانت عليه. يستعيد شريف ذكريات عائلته، حيث كان والده موسيقيًا فاشلًا لم يستطع النجاح في حياته. كان يسمع دومًا عبارات التحذير: "لا تكن مثل والدك!" كان يشعر بعبء هذه الكلمات. لذا حاول بشدة إثبات نفسه، لكن هذا كان يحول طموحاته إلى هوس، ودائمًا ما كان يخاف من الفشل. "لا أريد أن أكون عالة على أحد"، كان يكرر ذلك لنفسه دائمًا، ولكن بطرق خاطئة.

كان يحاول أن يُبقيهم معًا عن طريق توجيه مشاعرهم نحو بعضهم البعض بشكل سلبي، دون أن يدرك أنه بذلك كان يدفعهم نحو الهاوية.

الفصل الرابع: المواجهة الأولى

كانت الطاولة في زاوية المطعم القديم الذي اعتادوا أن يجتمعوا فيه. أضواء خافتة تتماوج من شمعة تتراقص وسط الأطباق، بينما يختلط ضجيج المكان بضحكات متقطعة من الطاولات المجاورة.

بدا كأن كل شيء يسير على عادته، لكن تحت السطح كانت هناك عاصفة لا يراها سوى قلوبهم.

شادي، بملابسه الملطخة بالألوان لم تجف بعد، كان يتحدث بحماس عن لوحته الجديدة:

"تخيلوا... شهور وأنا أعمل عليها. أحسست أنني أرسم روحي لا أجساد."

كانت عيناه تلمعان كما لو أنه بالفعل يعيش في عالم اللوحة، وليس على الطاولة أمام أصدقائه.

لكن ليلى كانت صامتة، عيناها معلقتان بكوب الماء أمامها. وحين التفت إليها شادي وسأل بابتسامة:

"وأنتِ يا ليلى؟ ما مشروعك الجديد؟" رفعت رأسها ببطء، وقالت بصوت بارد:

"لا شيء مهم..."

سقطت الكلمة كحجر ثقيل في الماء. للحظة، شعر شادي أن الصداقة التي جمعتهما منذ الطفولة تصدعت أمامه. في داخله تساءل: أين ذهبت ليلى التي كانت تصغي إلي وكأنها تحفظ أحلامي كما تحفظ صلواتها؟

أما ليلى، فقد كانت تغلي من الداخل. كل كلمة نطق بها شادي كانت تذكرها بعجزها،

كل بريق في عينيه كان يشعل في داخلها جوعًا غريبًا، جوعًا لأن تمتلك ما يملكه وأكثر. لم تعد تريده سعيدًا بجانبها، بل أرادت أن تكون وحدها على القمة، بلا منافس ولا شاهد.

تساءلت بصمت: "هل ما زلت صديقته، أم صرتُ مجرد شاهد على مجده؟" لقد بدت مشاعرها متناقضة؛ خليط من إعجاب قديم كان يحثها على التصفيق له، وغيرة جديدة تكاد تخنقها.

شريف، الذي كان يتابع بصمت، حاول أن يضحك ليكسر التوتر، لكنها ضحكته خرجت جافة. ارتشف من كأسه، ثم قال:

"على الأقل، أحدنا يحقق شيئًا ملموسًا."

كان صوته يحمل مرارة أكثر مما يحمل تهكمًا، لكنه لم يجرؤ على النظر في عيني شادي أو ليلى.

ساد صمت ثقيل للحظة، حتى إن صوت الملاعق على الأطباق بدا كأنه يصرخ. وفي داخله، شعر شادي بعبء جديد: النجاح الذي حلم أن يشاركه مع أصدقائه صار الآن سببًا في غربته عنهم.

فكر: الغيرة... إنها ضيف غير مدعو جلس على مائدتنا الليلة، يمد يده إلى أطباقنا، ويأخذ من كل واحد منا نصيبه. هل كان لابد أن ندفع ثمن أحلامنا بهذا الشكل؟

أما ليلى، فلم تكن الغيرة ضيفًا عندها، بل كائنًا أو شيئًا آخر، جوع غريب بل دائم، فم مفتوح يبتلع كل نجاح حولها، حتى نجاح أصدقائها.

الفصل الخامس: الهاوية

مرّت الأيام كأنها حجارة تتساقط ببطء فوق صدورهم، تثقل أنفاسهم وتضاعف المسافة بينهم، رغم أنهم كانوا في يوم من الأيام يظنون أن صداقتهم قادرة على أن تتحدى العمر نفسه. كل محاولة من شادي للتقرب من ليلى كانت تزيد الجدار ارتفاعًا بينهما، وكل كلمة منه، مهما حملت من دفء، كانت تُستقبل بصمت بارد أو بابتسامة مشدودة لا تحمل سوى مجاملة خاوية. أما شريف، فقد صار يشعر أن دوره يتضاءل بينهم بل يكاد يختفي، كظل شاحب يرافق صديقين انشغلا عن ظله.

كان شريف يعيش ازدواجية قاسية. في داخله صوتان يتناحران:

أحدهما يهمس برجاء مرتعش: أنقذ الصداقة، اجمعهم قبل أن تضيع للأبد، لا تسمح للسنين أن تمحو ما جمعكم. أما الآخر فكان يصرخ بصوت أجشّ لا يرحم: "أنت الأقل بينهم، لا قيمة لك بينهم، أنت مجرد عابر في حكايتهم، وهم لن يلحظوا غيابك أصلًا."

ولم يعد يستطيع تحمّل هذا الصراع. فقرر، كغريق يتشبث بخشبة نجاة، أن يمنح نفسه وأصدقاءه فرصة أخيرة. أرسل لهما دعوة بسيطة، مترددة، لكنها تحمل بين حروفها رغبة صادقة في استعادة ما فُقد: لقاء في المقهى القديم، ذلك الذي كان يومًا وطنًا

لأحلامهم، حيث كانت الموسيقى والضحكات والقصص تتعانق في فضائه، وكأن جدرانه تحفظ أرواحهم بين أركانه.

جاءوا، على استحياء، وجلسوا حول نفس الطاولة التي طالما حملت أسرارهم ورسائلهم الصغيرة وأكواب قهوتهم الباردة.

الطاولة نفسها، لكنها لم تعد كما كانت. الخشب فقد دفأه، والذكريات التي كانت تنبض فيه صارت رمادًا يوشك أن يتطاير مع أول نسمة.

البيانو في الزاوية يعزف لحنًا بطيئًا، متثاقلًا، بدا كأنه يخرج من رحم ذاكرة مثقلة بالخذلان. جلسوا صامتين، والهواء بين أنفاسهم صار أثقل من أي موسيقى. حاول شريف أن يبدأ الحديث بهدوء، لكن الكلمات علقت في حلقه، ترددت بين الرغبة في المصالحة والخوف من الانفجار. كلما نظر في عيني شادي، رأى الغرور الذي كان يتخيله يتسلل منه خلسة. وكلما نظر إلى ليلى، لمح الجشع وهو يلتهم ملامحها كما يلتهم الليل آخر ومضات الغروب. عندها شعر أن الصمت لم يعد يُحتمل، وأن السكوت صار أشبه بمقبرة مفتوحة. فاختار، مدفوعًا بمرارة لا تُكبح، أن يجرّهم إلى مواجهة مباشرة.

ابتسم ابتسامة مشدودة، ابتسامة لم تحمل أي دفء، ثم قال لشادي:

"سمعت أن لوحتك الأخيرة بيعت بمبلغ ضخم... يبدو أن النجاح صار رفيقك الدائم."

ارتبك شادي للحظة، لم يعرف هل في كلام شريف إعجاب حقيقي أم سخرية خفية. رد متلعثمًا: "نعم... كنت محظوظًا. العمل وجد من يفهمه."

لكن في داخله، كان هناك شعور آخر يزحف ببطء، شعور لم يجرؤ أن يُظهره. شيء أشبه بفخر خفي، همس له: "نعم، أنا الأهم بينكم الآن. لوحتي صارت حديث الناس، بينما أنتم ما زلتم تبحثون عن مكان تحت الضوء." كان يحاول أن يخفي هذا الصوت، لكنه كان يتضخم مع كل لحظة صمت.

لم يُمهله شريف كثيرًا، فقد التفت فجأة إلى ليلى، وصوته صار أكثر حدّة، كأنه سيف يقطع الهواء:

"أما أنتِ يا ليلى... لماذا توقفتِ عن الكتابة؟ لا تقلبيها أعذارًا، كلنا نعرف السبب. ربما لأنكِ انشغلتِ بالنظر إلى نجاح الآخرين بدل أن تنظري إلى نفسك."

تجمدت ليلى في مكانها، كلمات شريف سقطت عليها كالسياط.

حاولت أن ترد، لكن صوتها خرج مرتجفًا، محمّلًا بسنوات من الكبت:

"أتعلم يا شريف؟ أحيانًا الغيرة لا تأتي من الخارج... أحيانًا تأتي من أقرب الناس إلينا."

كان قلبها يصرخ بما لم تنطق به بعد: أنها لا تريد فقط أن تنجح مثل شادي، بل أن تتجاوزه، أن تستولي على كل الضوء الذي يحيط به، أن تُمحى لوحاته من الذاكرة ليبقى اسمها وحده في السماء. جشعها كان يتنكر في هيئة غيرة، لكنه كان أعمق، أشرس، أرضًا لا ترتوي.

نظر شادي بينهما مذهولًا، شعر أنه عالق بين سهمين موجهين نحوه ونحوها في آن واحد. قال بصوت مضطرب: "انتظروا... لم أدعُ أحدًا منكم ليتألم بسبب نجاحي. كنت أتمنى أن نكبر معًا، لا أن نتناحر."

ضحك شريف ضحكة قصيرة، لكنها لم تحمل أي بهجة، بل بدت كصرخة يائسة مقنّعة بالسخرية: "نجاحك؟ هو بالضبط ما فرّقنا، يا شادي. وأنتِ يا ليلى، ألن تعترفي أنكِ منذ زمن لم تعودي سعيدة برؤيته ينجح؟"

عندها انفجرت ليلى، لأول مرة منذ زمن، قالت بصوت عالٍ، كأنها تقذف الحمم من جوف بركان: "كفى يا شريف! نعم، شعرت بالغيرة. نعم، تمنيت لو كنت أنا من يُحتفى به. لكنك ماذا فعلت أنت؟ تختبئ خلف موسيقاك، وتنظم الحفلات الصغيرة، ثم تلومنا على أننا لم نرك!"

ارتج المكان بتصاعد الكلمات، توترت الأجواء حتى صار الهواء نفسه مشبعًا بالكهرباء. الطاولة ارتجفت تحت قبضات الغضب، والكؤوس ارتعشت كأنها تستعد للتحطم.

في لحظة غضب أعمى، دفع شادي الطاولة بعنف، فانسكبت القهوة وتهشمت بعض الصحون، وأصابت إحدى الشظايا ذراع ليلى فصرخت بألم. كان المشهد أقرب إلى مسرح دموي صغير.

تجمد شريف في مكانه، حاول أن يهدئ الأجواء، لكن صوته بدا كهمس أمام العاصفة. أما شادي، فقد شعر بالندم يتفجر في صدره، لكنه لم يجد الشجاعة ليواجه نظراتهما. وقف فجأة، وخرج من المكان بخطوات متعثرة.

الباب حين أغلق خلفه أصدر صوتًا مدويًا، بدا كأنه يُغلق فصلًا كاملًا من صداقتهم. جلس الاثنان الباقيان في صمت ثقيل، والدماء على ذراع ليلى تتساقط ببطء فوق الطاولة، بينما الموسيقى في الزاوية استمرت بالعزف كأنها ترثي صداقة وُلدت من النور، وانتهت في الهاوية.

الفصل السادس: الفراق

لم يكن ما حدث في المقهى مجرد خلاف عابر بين ثلاثة أصدقاء. كان البرق الذي شق قلب صداقتهم إلى نصفين، وترك في كل واحد منهم نزيفًا لا يراه الآخرون. منذ تلك الليلة، تغير كل شيء.

لم تعد المدينة كما كانت، لم تعد وجوه الناس مألوفة، ولم تعد الذكريات تحمل نفس الدفء بالنسبة لهم.

شادي غادر بصمت. لم يخبر أحدًا، لم يترك رسالة، فقط حمل لوحاته وبعض أدواته ورحل بعيدًا عن المدينة، كأن المكان صار خانقًا لا يتسع لأنفاسه. جلس في مرسم بارد على أطراف بلدة بعيدة، الضوء يتسرب من نافذة عالية ويترك بقعة باهتة على قماشه الأبيض. أمامه فرشاة ترتجف في يده، يحاول أن يرسم، لكن الألوان تتخثر على سطح اللوحة كدم فاسد. كلما حاول أن يرسم وجهًا، يظهر له ظل ليلى، كلما حاول أن يخط خطوطًا، يسمع ضحكة شريف التي انقلبت في أذنه إلى سخرية. مزّق عشرات اللوحات، حتى غطت الأرضية قصاصات مشوهة كأشلاء بشرية. في داخله كان يعرف: الفن الذي ظنه خلاصه صار سجنه، ولوحاته لم تعد نوافذ للنور بل مرايا تعكس غروره وخيبته.

أما ليلى، فقد عادت إلى شقتها الضيقة، حيث الكتب المكدسة والدفاتر المبعثرة على الطاولة. جلست هناك كطيف باهت، تفتح

أحد دفاترها القديمة وتقرأ ما كتبت يومًا عن "ثلاثة أصدقاء يواجهون العالم معًا". ضحكت بمرارة، فالكلمات لم تعد تخصهم.

الكلمات خانتها، كما خانها قلبها وجشعها. كل جملة شعرت بها كسكين يغرس في صدرها. الدموع انهمرت بصمت، لكنها لم تكن دموع ندم فقط، بل دموع ذلك الوحش الذي لا يشبع. الأسئلة نفسها: لماذا لم أنجح مثل شادي؟ لماذا لم أكن الأقدر بينهم؟ لماذا حُكم عليَّ أن أكون باهتة؟ كان الجشع ينهش قلبها، لا يريد أن يعترف بالخسارة. وحين أغلقت الدفتر، حدقت في الفراغ أمامها وهمست: "لن أكون الضحية... لن أبقى في الهامش."

وأما شريف، فقد جلس في غرفته المظلمة، والعود بين يديه. حاول أن يعزف لحنًا يخفف عنه، لكن أصابعه كانت ترتجف، والنغمة تتقطع كما يتقطع صوته حين يحاول الكلام. كل وتر يعزفه كان يذكّره بالليلة المشؤومة، بكلماته الجارحة، لا يدري كيف قالها، بضحكته التي تحولت إلى طعنة. رمى العود أرضًا، فتكسّر أحد أوتاره كأن قلبه هو الذي انكسر. جلس واضعًا رأسه بين كفيه، يغلي داخله شعور بالذنب، لكنه لم يعرف كيف يداوي ما انكسر.

كان يلوم نفسه، ويلومهم أيضًا. لماذا لم يتمسكوا أكثر؟ لماذا سمحوا للغيرة والجشع والغرور أن يتسلل بينهم؟

في الليل، حين خيّم السكون على المدينة، كان الثلاثة في عزلة، كل واحد منهم في سجنه الخاص. ومع ذلك، ثمة رابط خفي يربطهم:

الذكريات. كل واحد رأى في نومه الحلم ذاته: حديقة قديمة، يجلسون فيها معًا كما في الماضي، لكن الأرض كانت تتشقق تحت أقدامهم، والسماء ملبدة بسحب سوداء. وفي منتصف الحلم، يسمعون جميعًا صوتًا غامضًا يهمس: "هذه ليست النهاية... هذه مجرد بداية لي." استيقظ الثلاثة مذعورين في اللحظة نفسها، في أماكن مختلفة، لكن الصدى كان واحدًا.

الفصل السابع: المواجهة الأخيرة

في محاولة أخيرة لإعادة الأمور إلى نصابها، دعا شريف شادي وليلى إلى لقاء جديد. المقهى نفسه، الطاولة نفسها، والموسيقى تعزف في الخلفية كأنها تكرر لحنًا يعرف النهاية قبلهم جميعًا. لكن هذه المرة، لم يكن في الجو أثر من دفء الأمس، بل توتر مكتوم يثقل الهواء.

بدأت المحادثة بعبارات مترددة، لكن سرعان ما انزلقت إلى هاوية الاتهامات. ليلى تتهم شادي بالأنانية، وشادي يصرخ بأنها لا تعرف معنى التضحية، وشريف يحاول التوفيق بينهما، لكن كلماته كانت كالحطب يُلقى على النار.

وفي لحظة من اليأس، حين شعر شادي أن الكلمات لم تعد تكفي، مد يده إلى السكين الموضوعة على الطاولة بجوار طبق لم يلمسه أحد. قبض عليها كمن يجد خلاصه في حدّها البارد، وصاح بعينين يكسوهما الجنون: "لقد سئمت من هذه اللعبة! إن لم تنتهِ الليلة، فلن تنتهي أبدًا!"

تجمدت ليلى، عيناها اتسعتا كأنها ترى شبحًا لا صديقًا. أخذت خطوة إلى الوراء، لكن شادي كان قد اندفع نحوها، عرقه يتصبب، وصوته يرتجف بين الغضب واليأس.

شريف، مدفوعًا برعبه وحرصه على كليهما، اندفع ليمسك بيد شادي، محاولاً أن يوقفه قبل أن يسقط كل شيء في الهاوية.

صرخ: "توقف يا شادي! أنت لا تفهم ما أنت على وشك فعله!" لكن القدر لم يمنحهم لحظة أخرى.

اندفع السكين في فوضى الحركة، وغاص في صدر شريف بدلاً من ليلى. للحظة، ساد صمت مروع، صمت لم يقطعه سوى أنفاس شريف المتقطعة وهو يسقط على الأرض.

عيناه كانتا مملوءتين بدهشة لم يعرفها من قبل، دهشة إنسان أدرك متأخراً أن التضحية التي حلم بها جاءت في صورة طعنة. نظر إلى شادي، ثم إلى ليلى، كأنه يسأل بلا كلمات: "كيف انتهى الأمر هكذا؟"

الدم بدأ ينساب على أرضية المقهى، يتسلل بين البلاط البارد، بينما تجمد شادي مكانه، والسكين لا يزال في يده. كان قلبه يصرخ: "لم أقصد... لم أقصد!"، لكن الكلمات لم تخرج.

جسده متيبس كتمثال، عيناه متسعتان كأنهما تبحثان عن تفسير في الهواء المليء برائحة الدم. يداه ترتجفان، والسّكين ما زالت دافئة من جسد شريف. لم يشعر أن الأرض تحت قدميه ثابتة، بل كأنها انهارت فجأة، تاركة إياه معلقاً في فراغ مرعب.

أما ليلى، فقد سقطت على ركبتيها بجوار شريف، دموعها تختلط بالدماء المتدفقة. نظرت إلى شادي، وفي عينيها مزيج مسعور من

الغضب والخوف واليأس. كان المشهد أمامها أكبر من قدرتها على الاحتمال: صديقها يحتضر، والآخر واقف كقاتل غريب لا تعرفه.

صرخت بصوت مخنوق: "ماذا فعلت يا شادي؟ ماذا فعلت؟!"

لكن شادي لم يجب. شفتاه تحركتا بصمت، كأنه ينطق بكلمات لا صوت لها، كأنه يحاور نفسه لا غيره.

لم ترَ ليلى أمامها إلا خيانة مركبة: خيانة الصداقة، خيانة الأمان، خيانة الحلم الذي جمعهم. رأت كل ذلك بوضوح جارح، لكنها لم ترَ خيانتها الأعمق؛ لم ترَ أن جشعها كان السكين الأولى، وأن ذلك الجشع في الاستحواذ والنجاح كان الشرارة التي أحرقت الجسر بينهم.

رأت في شادي صورة من اغتنم ما كانت تطمح إليه، لكنها لم ترَ كيف أن قلبها هو من سلّمه السلاح. رأت في شريف شاهدًا على سقوطها، لكنها لم تدرك أنها كانت الساقطة منذ أن سمحت لذلك الجشع الصغير أن يكبر بداخلها، ويتحول إلى وحش يلتهم كل شيء.

كان وعيها ناقصًا، يرى الآخر كجاني، لكنه يغضّ الطرف عن حقيقتها. وذلك هو أقسى أشكال الخيانة: أن يخون الإنسان نفسه، ثم يحوّل ضعفه إلى سلاح ويطعن به أقرب الناس.

وفي لحظة لم تكن واعية فيها تمامًا، أمسكت بالسكين التي انزلقت من يد شادي، قبضتها مشدودة كمن وجد في الحديد خلاصاً من عجزه.

اندفعت، والدموع ما تزال تغرق وجهها، وطعنته في صدره.

كانت الطعنة قصيرة، لكنها اخترقت كل ما تبقى بينهما. شادي ارتجف، صوت أنفاسه تكسّر، ويده امتدت نحوها لا لتهاجمها، بل كأنه يطلب منها تفسيراً، عذراً، لمسة أخيرة تعيده إلى ما كانوا عليه.

الدماء غمرت المكان، تسللت إلى أقدام الطاولة الخشبية، وصارت الأرضية أشبه بلوحة جنونية من الأحمر القاني. أصوات الزبائن المذعورين ترددت في الأرجاء، لكن الثلاثة كانوا في عزلة تامة، كأنهم محاصرون داخل مشهد كُتب لهم وحدهم.

شريف كان ممددًا على الأرض، أنفاسه الأخيرة تخرج متقطعة، عيناه نصف مغمضتين. شادي يترنح، يحاول أن يتكلم، لكن صوته غارق في دمه. ليلى، التي ألقت السكين بعد أن غرزتها، كانت تجلس في وسط كل ذلك، يداها ترتجفان، وعيناها تحدّقان في اللاشيء.

الفصل الثامن: الندم الأخير

بقيت ليلى وحيدة، تنظر إلى جسدي صديقيها. شعرت بثقل الندم يغرق قلبها. كانت الدموع تتساقط من عينيها، بينما تتساءل: "كيف وصلنا إلى هنا؟". لم تعد ترى سوى حقيقة واحدة مؤلمة: أن الجشع هو من قادهم جميعًا إلى الهاوية.

عاتبت نفسها بصوت يختنق بالبكاء: لقد كانت ناجحة بالفعل في المجلات المحلية، وكان عليها أن تصبر، أن تترك الوقت يصنع مجدها خطوة بخطوة. لم يكن عليها أن تتعجل القمة، ولا أن تترك جشعها للنجاح السريع يحرق الجسر بينها وبينهم. حتى لو وصل صديقها قبلها، كان بإمكانها أن تظل ثابتة في طريقها.

وقفت تصرخ وحيدة أمام جثث أصدقائها: "لماذاااا؟!". صرخة اخترقت الظلام لكنها لم تجد من يجيبها. في تلك الليلة، ترك الجشع ندبة لا تمحى، وحُكم على ليلى أن تعيش سجينة لندمها، تتحدث مع أشباح الماضي، حتى غدت صورتها الأخيرة في ذاكرة الناس

امرأة تائهة، تجلس في أروقة المصحات وهي تنادي أسماء لم يعد لها وجود.

رفع العجوز رأسه، وصوته اختنق بمرارة السنين، ثم التفت إلى سامر دون أن ينتظر منه سؤالًا. كان يعرف أن الحكاية لا تنتهي هنا،

وأن الليالي السوداء لم تكشف سوى جزء يسير من لعنتها. قال بصوت متهدّج: "والآن... سأروي لك ما حدث في اليوم الثالث."

اليوم الثالث: "الكسل"

الفصل الأول: حياة بلا طموح

كانت مدينة "ميراج" ذات يوم تعج بالحركة، تتنفس بالشغف، تضج بالعمال والتجار والطلاب الذين يمشون بخطى واثقة نحو أحلامهم.

لكن وسط كل هذا الضجيج، كان هناك ركن صغير يرفض المشاركة، مساحة ساكنة كأن الزمن توقف عندها. في هذا الركن عاش سامي، الفتى الذي عُرف بين أهل الحي بلقب غريب: الجثة الحيّة.

كان يجلس معظم وقته تحت ظل شجرة معمّرة، جذورها ضاربة في الأرض كأنها أقدم من ذاكرة المكان. لم يكن يقرأ، لم يكن يعمل، لم يكن حتى يحلم. كل ما يفعله أن يحدّق في السماء، أو يراقب الغيوم وهي تمرّ ببطء، كما لو أنها تحمل عنه عبء التفكير.

كان الكسل يلتف حوله كشرنقة شفافة، لكنه لم يكن يحاول التملّص منها، بل وجد فيها دفئًا يشبه القبر.

لم يكن أهله أيضًا يرونه سوى عبئًا صامتًا. ففي تجمعهم الأخير، جلس مع والديه وجده يستمعون إلى حديث لا ينقطع عن

إنجازات أخيه الأكبر. لقد حصل على منحة مرموقة، وسيغادر قريبًا ليكمل دراسته في الخارج. كانت أمه تفيض فخرًا وهي تقول:

"هو دائمًا متفوّق، لم يُخِب ظنّنا يومًا."

ثم التفتت إليه، إلى سامي، الذي جلس كظلّ لا يملك ملامح:

"وأنت يا سامي، هل لديك خطط لأي شيء يا بُني؟"

رفع رأسه ببطء، ابتسم ابتسامة باهتة، وأجاب بصوت خافت كأنه قادم من بئر عميقة:

"لا... لا شيء خاص."

ساد الصمت، وتبادلوا النظرات التي كانت أقسى من أي كلمة.

بعدها انسحب سامي إلى غرفته، وهناك جلس أمام الجدران المليئة بالصور العائلية. في كل صورة كان يلمح وجه أخيه، مكللًا بالنجاح والمرح، بينما هو لم يكن سوى خلفية باهتة، شبح يقف على هامش الكادر. شعر بمزيج غريب من الفخر والاختناق.

"لماذا لا أستطيع أن أكون مثله؟" همس لنفسه. لكن حتى هذا السؤال أرهقه. أغلق عينيه، وسمح للكسل أن يغطيه مثل غطاء ثقيل يدفن أي محاولة للتفكير.

في الحي، كان أصدقاؤه يجتمعون ليتحدثوا عن أحلامهم. أحدهم أراد أن يصبح طبيبًا، آخر كان يتحدث عن دراسة الهندسة، وثالث يحلم بالسفر ليغزو العالم. أما سامي، فكان يجلس بينهم كجدار

صامت، يبتسم أحيانًا، أو يكتفي بهزّ كتفيه. كانوا يسخرون منه أحيانًا:

"سامي، هل ستبقى تحت شجرتك حتى تشيب؟"

وكان يضحك ضحكة قصيرة لا تحمل أي حياة، ثم يعود إلى صمته.

في داخله، كان هناك شعور خفيّ بالراحة لأنه لا يحمل عبء الطموح، كأنه نجح في الهروب من سباق الحياة. لكن هذه الراحة لم تكن بريئة. كانت شيئًا أعمق، شيئًا يتسلل إلى روحه ببطء. كل يوم يمرّ، كان سامي يخسر شيئًا من نفسه دون أن يشعر. وكل ساعة يقضيها في الاستلقاء، كانت أشبه بحجر جديد يُوضَع على قبره المفتوح.

وفي الليل، حين ينام العالم بأحلامه، كان سامي يستيقظ أحيانًا وهو يتصبب عرقًا، يشعر بوجود ثقيل بجانبه. لم يكن يرى وجهًا، فقط ظلًا داكنًا يجلس قرب سريره، يهمس له:

"لا حاجة لكل هذا... دع غيرك يركض، أنت خُلقت لتستريح."

في البداية كان يظنها مجرد أوهام، لكن مع مرور الوقت، صار هذا الصوت مألوفًا، كصديق قديم. وهكذا بدأ سامي يقتنع أن كسله ليس عادة، بل قدر. قدر غامض يجرّه ببطء إلى الهاوية، حيث لا طموح، لا نجاح، ولا حتى ندم. مجرد حياة فارغة، تنزلق كالماء من بين الأصابع.

الفصل الثاني: مسابقة الكسل

وبينما كان يتصفح الإنترنت، ظهر له الإعلان عن "مسابقة الكسل الكبرى".

لم يكن الإعلان مجرد مزحة كما ظن سامي أول الأمر، ظل يقرأ الإعلان مرارًا، وكأن الكلمات تتوهج كلما حاول أن يتجاهلها.

ضحك بسخرية: "مسابقة للكسل؟ أهذا ما وصل إليه العالم؟"

لكن الفكرة بدأت تنغرس في ذهنه كشوكة ناعمة، تغتصب الجلد دون أن يراها أحد. تساءل في نفسه: "ولِمَ لا؟ إن كان للناس بطولات في القوة والذكاء والجَمال، فلماذا لا يكون لي أنا بطولة في أكثر ما أجيده؟"

لحظة من التردد مرّت، تلتها لحظة أخرى من الإغراء، ثم جاءه ذلك الصوت المألوف، الظل الذي رافقه منذ أيام: "شارك، يا سامي... الكسل قدرك، فلماذا تقاومه؟"

ارتجف، لكنه ابتسم ابتسامة واهنة، وكأنه وجد أخيرًا مبررًا للاستسلام.

في اليوم التالي، خرج سامي بخطوات متثاقلة، كمن يُساق إلى قدر محتوم.

المكان: قاعة ضخمة في قلب المدينة، لكنها لم تكن تشبه القاعات العادية؛ سقفها عالٍ غارق في الظلال، ومصابيح صفراء خافتة تتدلى مثل شموع قديمة، تبعث ضوءًا لا يدفئ بل يثقل. على الجدران لافتات تقول:

"لا حركة، لا كلمة، لا تراجع."

جلس المتسابقون على مقاعد وثيرة ووسائد، في صمت يُشبه صمت المقابر. بعضهم أغمض عينيه من البداية، وبعضهم راح يتثاءب بتباهٍ، كأن التثاؤب إعلان ولاءٍ للكسل.

في وسط القاعة جلس سامي، وعيناه تترنحان بين الخوف والفخر.

"أهذا قدري؟ أن أشارك في بطولة الكسل؟" تردّد السؤال في داخله، حتى جاءه الهمس المعتاد من ظله: "نعم... هنا تنتمي. هنا لن يسخر منك أحد."

على المنصّة اعتلى رجل ببدلة سوداء، وجهه مخفي تحت قناع أبيض بلا ملامح. صوته أجوف:

"المسابقة تبدأ الآن. القاعدة واحدة: من يتحرك... يخسر. من يصمد... ينال كل شيء."

دوى تصفيق بطيء، بلا حرارة، كأن أيادي المتفرجين مثقلة بأوزان من حديد.

جلس سامي بثبات، بينما بدأ المتسابقون من حوله يتساقطون واحدًا تلو الآخر: بعضهم ملّ، بعضهم لم يحتمل الصمت، وبعضهم انسحب وهم يجرّون أقدامهم بخزي.

شعر سامي بنوع من الزهو الغريب: "أخيرًا... شيء أنا أجيده."

لكن في الجهة المقابلة، لمح رجلًا ضخم الجثة جالسًا بلا حركة، جسده كتمثال مهجور، عيناه نصف مغلقتين، لكنه أشبه بجبل لا تهزه الرياح. همس أحد الحضور: "ذلك هو البطل السابق... لم يخسر يومًا."

انقبض قلب سامي. لم يعد الأمر مجرد مسابقة، بل مواجهة مع كسل مجسّد أمامه، خصم أسطوري يمثل كل ما كان يخشاه في نفسه. بدأ الزمن يتباطأ. دقائق تتحول إلى ساعات، والساعات إلى فراغ لا ينتهي. كلما حاول أن يرفع جفنه أو يغيّر جلسته، شعر بأن ثقلًا غامضًا يشده إلى الأرض. أفكار متضاربة تتناوب على ذهنه: "أمضي في هذا الطريق... أم أنه هلاك؟"، "أفوز بالجائزة... أم أخسر حياتي؟"

صوت الظل لم يفارقه: "اصبر، سامي... سيكافئك الكسل. هذا ليس عيبك، بل قوتك."

ابتسم ابتسامة باهتة، كمن وجد عزاءً غريبًا في استسلامه.

بينما كان المتسابقون ينسحبون أكثر فأكثر، بقي سامي ثابتًا، وعيناه نصف مغمضتين، يغمره إحساس مبهم بأنه على وشك الدخول

إلى عالم جديد، عالم لا عودة منه. رفع الرجل ذو القناع الأبيض يده إشارة إلى الجمهور، فارتفع همس مبهم في القاعة. شعر سامي وكأنه يُختار، يُختبر، يُسحب إلى مصير لم يفهمه بعد.

وهكذا انتهى المشهد الأول من المسابقة، ليبدأ سقوطه الحقيقي...

الفصل الثالث: السقوط في الكسل

مع مرور الوقت، بدأ جسده يرسل إشارات صغيرة: جفاف في حلقه، تقلص في معدته، شعور بالحاجة إلى الحمام. اقترب منه أحد المشرفين بوجه جامد وقال: "القواعد واضحة... لا حركة. كل ما عليك أن تفعله هو أن تبقى كما أنت."

كاد سامي يصرخ، لكن شيئًا في داخله كبّل صوته. كان ظلّه جالسًا إلى جواره، يهمس في أذنه بصوت بارد: "اصبر... بقي القليل. ستنال ما لم ينله غيرك. لقد سخروا منك طيلة حياتك... والآن سيُجبرون على التصفيق لك."

ارتجف قلبه، وشعر أن الكلمات هي نبوءة سوداء تشدّه إلى أسفل، كما يشدّ البحر غريقه نحو القاع.

تضخّم الشعور في بطنه، مثانته تحولت إلى قيد حديدي يطرق عليه من الداخل. أراد أن ينهض، أن يركض إلى الحمام، لكن الخوف من الخسارة كبّله إلى الكرسي. تخيّل نفسه واقفًا أمام الجميع خاسرًا، يضحكون كما ضحكوا من قبل حين وصفوه بـ"الجثة الحيّة".

ابتسم ابتسامة مشوّهة وهو يقول في نفسه: "لا... لن أتحرك. حتى لو انفجرت من الداخل. هذا هو ثأري." تسّرب العرق على جبينه،

وتحولت أنفاسه إلى صفير متقطع، لكن يديه بقيتا ساكنتين على فخذيه، كجناحين مكسورين.

مع امتداد الليل، بدأ يشعر أن الجدران تقترب منه، وأن الضوء الأصفر يذوب مثل شمع بطيء على رأسه. رأى البطل السابق . الرجل الضخم . لا يزال جالسًا بثبات، مغمض العينين كأنه في نوم أبدي. حينها تداخلت الحقيقة بالوهم؛ تخيّل أن جسد الرجل يتفتت إلى غبار أسود يملأ القاعة، وأنه هو الوحيد الباقي.

"أهذا هو الفوز؟ أن أبقى وحدي بين الرماد؟" لكن الصوت عاد أقوى من أي وقت مضى: "لا تسأل... لا تفكر... فقط استسلم. الكسل خلاصك، صدقني."

كان سامي يغرق ببطء، لا في النوم ولا في اليقظة، بل في حالة ثالثة بينهما. يده لم تعد له، جسده لم يعد له، كأنه صار كرسيًا آخر في القاعة. وعندما سمع صوت المراقب يعلن: "ليلة جديدة تبدأ، والمتسابقون الباقون يدخلون الاختبار الحقيقي..."

فتح سامي عينيه بصعوبة، ليرى أن العالم كله صار ضبابيًا، وأنه لم يعد متأكدًا إن كان لا يزال إنسانًا يجلس، أم كومة لحم مربوطة إلى قدر لا فكاك منه.

وهكذا بدأ سقوطه الحقيقي... سقوط لم يكن في المسابقة وحدها، بل في أعماق نفسه.

الفصل الرابع: الانهيار الصامت

لم يكن سامي يعرف كم مضى من الوقت. هل هي ساعات؟ أم يوم كامل؟ الزمن صار صفحة مطموسة لا أرقام عليها. كل ما يشعر به هو جسده الذي يثقل شيئًا فشيئًا، وكأن عضلاته تُستبدل بأحجار باردة.

عيناه ربع مغمضتين، تحاولان أن تبقيا مفتوحتين، لكنه لا يرى سوى خطوط باهتة تتحرك أمامه. أصوات الجمهور، التي كانت في البداية هتافات عالية، تحولت الآن إلى همسات بعيدة، كأنها تأتيه من قاع بئر.

المتسابقون؛ اختفوا. لكن سامي ظل جالسًا، ساكنًا، وكأن عجزه أصبح شكلًا من أشكال المقاومة. العطش الحارق، وحاول لسانه أن يبتلع لعابه فلم يجد ما يبلله. حتى تنفّسه صار جهدًا بطيئًا، كل شهيق كأنه جبل يُزاح عن صدره، وكل زفير كأنه تخلٍ عن جزء من حياته. ومع ذلك، سأل نفسه: هل أنا غبي حقًا، أم أنني اخترت الطريق الأسهل؟ تذكّر اللحظات التي ضيّعها مستلقيًا بدلًا من السعي وراء حلمٍ ما، إذا خسرت هذه المسابقة، ما الذي سأفعله بعدها؟ هل سأعود إلى الكسل مرة أخرى؟ لم يكن يعرف كيف يدير هذا الصراع فجأة، لذلك أغمض عينيه للحظات هربًا من مشاعره.

وعندما دوّى الجرس في القاعة، مُعلنًا جولة أخيرة من التحدي، لم ينتفض سامي، ولم ينظر حوله حتى. لكن في عينيه كان هناك بريق أخير: بريق رجل لم يعد يقاتل الآخرين، بل يقاتل ذاته. هكذا بدأ انهياره الصامت.

الفصل الخامس: النهاية المأساوية

كانت القاعة أشبه بمقبرة مفتوحة. لا شيء يُسمع سوى أنفاس متقطّعة، أصوات كراسٍ تحتك بالأرضية الثقيلة، وصمت يهبط على الرؤوس كما لو كان غطاء حجريًا. الضوء الخافت من المصابيح القديمة بدا وكأنه ينهش الأجساد المتراخية ببطء، يفضح الوجوه الذابلة التي لم تعد تفرّق بين النوم والموت.

سامي ما زال في مقعده، جالسًا كتمثال متهالك. عظام ظهره تصرخ، ساقاه تنبضان كطبول مكسورة، ودمه صار بطيئًا كالسائل اللزج. لم يكن يرى المقاعد الأخرى بوضوح، كأن العالم من حوله يتلاشى تدريجيًا. لم يبقَ إلا جسده، ذلك الجسد الذي صار سجنًا لا يمكن الهرب منه. أما عقله فتحوّل إلى كابوس، بدأ يتساءل عن جدوى المسابقة، عن جدوى كل شيء. ماذا لو كنت قد استثمرت هذا الوقت في شيء ذي قيمة؟ ماذا لو قمت بفعل أي شيء حقًا؟

أرسل ما تبقّى من مخّه إشاراتٍ لعينيه التي بدأت تذيق وجهه ببعض الماء، وفيما كانت الدقائق تمرّ، أدرك أن اللعبة انتهت. علم أنه لم يُكافح من أجل الفوز هنا، بل يحارب من أجل حياته. لكنه غرق بالفعل، فقد بال على نفسه، وهذا ما لم يتقبله عقله، فدخل في حالة سكون تام، وأغلقت عينيه ببطء، وبدأت أفكاره تتلاشى، فقد فات الأوان. خرجت بعض الكلمات منه:

"الكسل... ليس موتًا... إنه خلود بارد. تبا لك." ثم صمت.

الفصل السادس: النهاية

في صباح اليوم التالي، حين جاء المنظمون لتفقد المتسابقين، وجدوا سامي جالسًا على كرسيه، بلا حياة. كانت عيناه مغلقتين كما لو كان لا يزال يحلم، لكن روحه كانت قد فارقت جسده. لم يستطع أن يستمر في تلك المسابقة التي حوّلت لحظات راحته إلى نهاية قاتمة.

سعل العجوز بقوة، ارتجف كتفاه النحيلان حتى خُيّل لسامر أن أنفاسه ستنقطع في أية لحظة. مدّ يده مرتبكًا، كأنه يريد أن يساعده أو يناوله شيئًا يشربه، لكن العجوز أشار بكفه المرتعشة أن لا يفعل.

قال بصوت مبحوح، لكنه مملوء بإصرار غريب:

"لا تقلق... هذه السعال رفيقي منذ زمن... اجلس. إن تركتني أرتاح، فلن أستطيع إكمال الحكاية... والآن نحن في أشد أجزائها ظلمة."

جلس سامر في مكانه، يحدّق في عيني العجوز اللتين كانتا تلمعان كجمراتٍ تتوهج في رمادها الأخير. أحسّ لأول مرة أن الرجل نفسه ليس مجرد راويٍ للحكاية، بل شاهد عاش شيئًا منها، أو ربما حامل لجزء من لعنتها. أراد أن يسأله، لكنه تراجع، حين مدّ العجوز يده كمن يزيح ستارة عن مسرحٍ خفي وقال:

اليوم الرابع

الفصل الأول

في المدينة التي تناثر فيها الغبار فوق الأرصفة كما لو أنه غبار عصور منسية، مدينة يختلط فيها صخب الأسواق برائحة العفن المتصاعد من الأزقة الضيقة، كان يعيش رجل يُدعى يوسف، أستاذ الفلسفة في الجامعة العتيقة، رجل ذو ملامح هادئة، لكن عينيه لا تجرؤ على التحديق فيهما طويلًا، تفضحان اضطرابًا يشبه ذوبان الشمع من اللهب. كان يدخل القاعة الجامعية بخطوات واثقة، يجلس على كرسيه، ثم يبدأ في سرد أفكاره الجريئة، تلك الأفكار التي كان يظن أنها كفيلة بإنقاذ الناس من جمودهم. ومع ذلك، ما إن ينطق بجملة حتى يسمع همسات الطلاب وضحكاتهم المكتومة.

أحدهم، شاب جريء بملامح متحدية، رفع صوته قائلًا: "أستاذ، أهذه فلسفة أم مجرد كلمات تُعطينا العذر لنفعل ما نشاء؟"

ارتجّ قلب يوسف، لكنه لم يُظهر انفعالًا، بل ردّ بابتسامة باردة: "بل هي الحقيقة التي تخشون النظر إليها... أن الأخلاق ليست سوى قيود اخترعها الضعفاء."

لكن الضحكات تعالت، ولم يبقَ في القاعة سوى إحساس يوسف الثقيل بالعزلة. في تلك اللحظة، راح ذهنه يعود قسرًا إلى ذكرى بعيدة، إلى غرفة ضيقة يكسوها البرد في إحدى ليالي الشتاء. كان والده يجلس أمامه، عيناه تقدحان شررًا، وصوته يعلو: "يجب أن تكون الأفضل يا يوسف! الأفضل، وإلا فلست ابني!"

لم يكن هناك مجال للخطأ، فكل خطأ كان يستدعي عقابًا قاسيًا، لا يترك سوى الندوب في الروح. ومنذ تلك الليلة، حينما كان في الخامسة عشرة، وُلد بداخله شيء ما. أقسم يوسف في أعماقه، وبقسوة لا تقل عن قسوة أبيه: "سأكون الأفضل، سأكون السيد على كل قيد."

لم يعد ينظر إلى أصدقائه كرفاق لعب، بل كأتباع محتملين أو خصوم يجب أن يُخضعهم، كأن الحياة منذ ذلك الحين صارت ساحةً لا مكان فيها إلا لسيّد وجموع من التابعين.

وحينما رأى في عيون طلابه احتقارًا صامتًا، أدرك أن معركته الحقيقية ليست داخل جدران الجامعة، بل في فضاء آخر، في عالم بلا حدود، حيث الكلمات يمكن أن تتحول إلى سيوف. فأنشأ مدونة، ثم قناة، وهناك، في هذا العالم الجديد، لم يُقابل بالسخرية، بل بآلاف الوجوه المخفية وراء الشاشات، وجوه عطشى لكلمة، لأي كلمة، حتى لو كانت كلمة مسمومة.

كان يوسف يتحدث عن "التحرر من القيود الأخلاقية"، عن ضرورة تجاوز القوانين الأخلاقية من أجل بلوغ القوة والغاية، وكانت كلماته تسقط في قلوبهم كما يسقط المطر على أرض مشققة. لم يدركوا، أو لم يريدوا أن يدركوا، أن هذا المطر قد يحمل معه فيضانًا يغرقهم جميعًا.

الفصل الثاني: الجذور الدموية

مع مرور الوقت، بدأ يشعر بقوة تأثيره أخيرًا،

وبينما كان يوسف يقف أمام حشد متزايد من الوجوه المجهولة، لم يكن يراهم أشخاصًا بقدر ما كان يراهم كتلًا من العيون اللامعة، متعطشة لكلماته، مُصغية لكل همسة تخرج من شفتيه. ومع ذلك، وفي لحظة خاطفة، تسلل إليه شعور غريب: ومضة شك، كطيف بارد يمر عبر صدره. في تلك الليلة، حين عاد إلى غرفته الضيقة، جلس بين كتبه المكدسة، أوراقه المتناثرة، وأصوات المدينة المشتعلة خلف النافذة. فتح كتابًا ولم يقرأه، بل راح يحدق في الورق الفارغ داخله. ثم، كأنه يخاطب نفسه، تساءل بصوت مسموع: "هل ما أفعله... حقًا صحيح؟ أم أنني أبني محرقة وألقي الناس فيها؟"

لكن الجواب لم يأتِ منه، بل من صورة قديمة انبعثت من أعماق ذاكرته: أحمد، صديقه القديم، جالس أمامه في مقهى باهت، يضرب بيده على الطاولة ويقول بحدة: "يوسف، أفكارك سامة! الناس ليست دمى، ستقودهم إلى الذبح، وستتحمل دماءهم على يديك."

ارتجف يوسف، رفع رأسه، نظر حوله، فلم يجد أحدًا. ومع ذلك، ظل صوت أحمد يتردد في الغرفة كما لو كان حاضرًا.

فأجاب بعصبية: "لا، لا يا أحمد! ما أفعله هو الحقيقة، الثورة لا تنبت إلا من الدم... الدم!"

في مكان آخر من المدينة، في زقاق ضيق تغمره العتمة، كان ثلاثة من أتباع يوسف يتحلقون حول ناشط شاب، مقيّد اليدين، يتوسل بصوت مبحوح: "أنا لم أؤذِ أحدًا... فقط أردتُ أن يعيش الناس بسلام!"

لكن الرد جاء سريعًا، بصرخة من أحد الأتباع: "السلام كذبة! التحرر لا يكون إلا بالدم!"

ثم سقط جسده في الظلام، والدم يختلط بماء المطر الذي كان يسيل على الأرض.

حين عادوا إلى يوسف في اليوم التالي، كانوا يتحدثون بحماس عن "النصر". أحدهم قال بفخر: "لقد نفذنا ما بشرتَ به، أيها المعلم. لقد حررنا المدينة من واحد من الأصوات المنافقة."

صمت يوسف للحظة، وارتعشت يده وهو يشعل سيجارة. في داخله صراع مرير: هل هم تلاميذه... أم جلادوه؟ هل هو الذي قادهم... أم هم الذين جرّوه إلى هاوية لم يقصدها؟ لكنه، أمام وجوههم المشتعلة، لم يستطع أن يتراجع.

قال ببطء: "إنها البداية فقط... البداية. العنف هو ثورتنا ضد النظام الفاسد."

وفي طرف آخر من المدينة، جلس علي، بائع الزهور، أمام بسطته الصغيرة. كانت يداه ترتجفان وهو يرتب الورود، لكن عينيه كانتا غارقتين في دموع حارقة. قبل أيام فقط، فقد أخاه في إحدى تلك الاعتداءات التي ارتكبها أتباع يوسف. لم يكن أخوه ناشطًا، لم يكن سوى موظف بسيط عاد متأخرًا إلى البيت.

والآن، بينما كان يمد وردةً لطفلة صغيرة، تساءل بصوت لا يسمعه أحد:

"لماذا لم يسمعنا أحد؟ لماذا تركوا مدينتنا تتحول إلى مقبرة؟"

الزهور في يده بدت فجأة كأنها أكاليل موتى، والمدينة كلها صارت جرحًا مفتوحًا ينزف بلا توقف.

فقد تصاعدت الأعمال الإرهابية التي تُغلَّف بأفكار الأستاذ، وأصبح القتل بالنسبة لأتباعه عملًا للتحرر.

الفصل الثالث: اضطرابات

كانت المدينة تغلي كما لو أنها على وشك الانفجار. في الأزقة الضيقة، كانت سيارات الشرطة تجوب بخطى ثقيلة، تصدر صفاراتها كعويل لا ينتهي. رجال بوجوه متجهمة يطرقون الأبواب، يستجوبون شبابًا بملامح مذعورة، يسألون عن يوسف، عن اجتماعات سرية، عن منشورات انتشرت بين أيدي الطلبة.

"هل سمعت خطبته؟" سأل محقق أحد الطلاب المرتبكين.

"نعم، لكن... لم أقصد... أنا فقط كنت أستمع!"

ارتعشت يد الطالب، وكأنه يعترف بجريمة لم يفهمها بعد. في الوقت نفسه، امتلأت الساحات بالهتافات. اللافتات ارتفعت: "لا للعنف!"، "لا للدم باسم الحرية!"، والجموع تتدافع، بعضها يغني، وبعضها يبكي، وآخرون يلقون الحجارة على زجاج المتاجر. لم يعد من الممكن التمييز بين الاحتجاج والمأتم، بين الحماسة والغضب.

في تلك الأجواء المشحونة، كان يوسف يستعد لحفل ضخم في المركز الثقافي. القاعة مضاءة بشموع كهربائية، والوجوه متراصة على المقاعد، بعضها مألوف من أتباعه، وبعضها فضولي جاء فقط ليشهد المشهد.

وقف يوسف أمام الميكروفون، وبدأ صوته يعلو: "نحن في عصر جديد! عصر يجب أن نتجاوز فيه القيود التي فرضتها المجتمعات، يجب أن نكسر السلاسل التي كبلتنا باسم الأخلاق، باسم النظام!"

تعالت التصفيقات، وارتفعت بعض الهتافات: "الحرية! الحرية!"، لكن يوسف فجأة أحس أن صوته لا يخرج منه، بل من مكان آخر، كأن هناك قوة خفية تتحدث بلسانه.

توقف للحظة، نظر إلى الصفوف الأمامية، فرأى وجهًا وسط الجموع يشبه وجه أحمد. حدّق فيه طويلًا، ارتجفت شفتاه، وكاد يصرخ باسمه، لكن الوجه اختفى في الزحام.

توقف للحظة، وعوض أن يرى الجمهور، لمح في الظلال وجهين متداخلين: ملامح أحمد الناصحة، وصدى عيني والده الغاضبتين. كان بين أمرين: صوت يدعوه أن يكسر القيود من أجل القوة، وصوت آخر يحذره أن الدم لا يصنع إلا عبيدًا جدُدًا. ارتبك، وبدأ يتلعثم: "الحرية... الحرية لا تعني... لا تعني الفوضى..."

ساد صمت قصير، التقطه الجمهور كأنه خطأ عابر. ثم، وبشيء من الإصرار، رفع صوته مجددًا: "لكنها تعني... القوة! أن نصبح أسيادًا على مصائرنا!"

ارتفعت التصفيقات من جديد، كعاصفة، لكنها اخترقت أذن يوسف كأصوات جنازات، كتصفيق على حافة هاوية. كان قلبه يخفق بعنف، وجسده يرتجف وهو يبتسم ابتسامة مصطنعة أمام

الجماهير. في داخله، كان سؤال واحد يصرخ: "هل ولدتُ حريةً... أم وحشًا يلتهم الجميع؟"

الفصل الرابع: المواجهة النهائية

كانت الساحة أمام المركز الثقافي تغلي كبركان. أصوات الهتافات تتعالى، لافتات ترتفع: "لا للعنف!"، "لا للدم باسم الحرية!". الشباب يتدافعون، والنساء يصرخن، والشرطة تقف عاجزة بين صفين متنافرين: صفّ يلعن يوسف، وصفّ يهتف باسمه.

تطايرت الحجارة في الهواء، وصوت زجاج يتكسر، ودماء سالت من جبين فتى صغير. لحظة واحدة فقط، واندلعت النيران، كأن المدينة كلها قررت أن تصرخ في مكان واحد.

من وسط الزحام، كان فارس يتقدم بخطوات ثقيلة.

وجهه مبلل بالعرق والدموع، وفي قلبه صورة لا تفارقه: سلمان، صديقه الذي مات في إحدى الهجمات. كان يسمع صوته كأنه حاضر: "السلام... هو الطريق الوحيد يا فارس، لا تدعهم يسرقونك من نفسك."

ارتجف فارس، قبض على قبضته، وهمس في داخله: "لماذا لم أستمع إليك يا سلمان؟ لكن اليوم... لن أسمح أن يستمر هذا الكابوس."

في الداخل، كان يوسف يقف على منصة مرتفعة، ينظر من فوق إلى بحر من الوجوه المضطربة. الضوء الكاشف يضرب وجهه،

فيجعل عينيه تبدوان كعيني ملك يتلذذ بمملكته. ومع ذلك، كان قلبه يخفق بجنون، كطبل حرب.

رفع يده وصاح بصوت هادر:

"لا تستسلموا! هذه ليست فوضى، بل بداية الحرية! دافعوا عن فلسفتكم، دافعوا عن حقكم أن تكونوا أسيادًا لا عبيدًا!"

تعالت الصيحات من أتباعه: "يوسف! يوسف!"، وكأنها موسيقى مقدسة. شعر بقشعريرة لذة تسري في جسده، لذة لم يعرفها حتى في أشد لحظات طفولته قسوة. كان يتغذى على هتافهم، يبتلع أصواتهم كما يبتلع الجائع لقمة دهنية.

لكن وسط الجموع، لمح وجهًا يتقدم إليه: فارس. عينان مشتعِلتان، يدا رجل يائس يبحث عن خلاص. ارتجف يوسف للحظة، وشعر بظل أحمد يتسلل من ذاكرته، يتحداه من جديد.

"يوسف، كم دمًا يكفيك؟" بدا الصوت وكأنه يخرج من حناجر الجميع.

بعناد مهووس، رفع صوته: "لا! لا بد من القوة! الحرية لا تُمنح... بل تُنتزع!"

الفصل الخامس: سقوط الملك

اقترب شيئًا فشيئًا، حتى صار أمام يوسف، يصرخ وكأنه إله صغير صنعه الجنون. لحظتها، غلفه الغضب حتى العمى. صرخ:

"لقد دمرت حياة الكثيرين!"

التفت يوسف، عينيه التقتا عيني فارس. شعر بالتهديد وكأنه يرى ظل أحمد، وصوت والده القديم، وصدى كل الأرواح التي طحنتها خطبه.

"من أنت؟!" صاح يوسف، لكن صوته كان مهزوزًا، كصوت شيخ يتوسل.

"أنا من بقي بعد أن قتلت كل شيء." همس فارس، ثم اندفع.

طعنة.

برهة صمت.

ثم انفتحت الدنيا كلها صراخًا.

يوسف تراجع للخلف، يده على بطنه، الدم يتدفق دافئًا، كثيفًا.

أحس كأن أحشاؤه تنزلق من بين أصابعه. وقع على ركبتيه.

حوله كان الصراخ يتحول إلى ضوضاء بعيدة، كأن العالم يبتعد عنه شيئًا فشيئًا.

انفجرت ذاكرته. رأى نفسه صبيًا يجري في الأزقة، يضحك مع رفاقه قبل أن يسكن قلبه شبحُ السلطة. رأى أمه تضع له رغيفًا ساخنًا، رأى أحمد يبتسم له، رأى تلامذته في الجامعة يوم كانت أفكاره مجرد كلماتٍ بريئةٍ على السبورة.

"هل كانت هذه الشهوة تستحق؟" تمتم بصوتٍ خافتٍ،

بدأت الهتافات تتلاشى، والوجوه أمامه تذوب في الظلام.

سقط جسده على الأرض، والدم ينساب من تحته كجدولٍ أحمر.

لكن الغريب... أن أصوات أتباعه لم تسكت. ظلوا يصرخون: "يوسف! يوسف!"

كانوا يهتفون باسمه كما لو أنه لم يمت بعد، كما لو أن صوته ما زال يصرخ في الهواء.

ابتسم يوسف ابتسامةً مرتجفةً وهو يغمض عينيه. لم يعرف إن كان موتًا... أم خلودًا.

ثم ابتلعه الظلام.

الفصل السادس: العواقب المأساوية

كان الفجر يتسلل على استحياءٍ فوق مدينةٍ مثقلةٍ بالرماد.

الشوارع التي ضجّت ليلة الأمس بالدم والصراخ بدت ساكنةً، لكنها لم تكن هادئةً؛ الصمت كان مشبعًا برائحة الحديد والدم، كأن الجدران نفسها تئنّ من ثقل ما جرى.

عند زاوية المركز الثقافي، تمدد جسد يوسف. معطفه ممزق، وجهه شاحب، وعيناه مغمضتان كما لو أنه يغطّ في نومٍ لا عودةَ منه. حوله بقع دمٍ متجمدة، وأثر أقدامٍ مرّت مسرعةً في الليل. لم يكن جسده محاطًا بأتباع، ولا بأصدقاء؛ فقط

برودةُ الصباح، وفضولٌ عابرٌ لرجلٍ من الشرطة يقف بعيدًا يدوّن شيئًا في دفتره.

تجمّع بعض الناس بصمتٍ يشبه صلاةً بلا كلمات. امرأةٌ عجوز وضعت يدها على فمها، شابٌ تمتم: "هو هذا إذن؟ من كان يصرخ البارحة كالملك؟" طفلٌ صغير أمسك بيد أبيه وسأل: "لماذا ينام في الشارع؟" لكن الأب لم يجد جوابًا.

في مكانٍ آخر، كانت الجدران ما تزال تحمل شعاراتٍ كتبت باسم يوسف، نصفها ممزق، ونصفها الآخر يغطيه الدم. بدت الكلمات كأشباحٍ باهتةٍ: "حرية"، "قوة"، "خلاص".

لكن أحدًا لم يرفع صوته ليهتف بها من جديدٍ.

أما يوسف، ففي لحظاته الأخيرة قبل أن تنطفئ روحه، كان قد رأى الحقيقة واضحةً: لم يبقَ له أصدقاء، ولا أتباع، ولا حتى أفكاره التي كان يظنها خالدةً. كل ما تبقّى هو عزلةٌ باردة، وفوضى صاخبة، وسؤالٌ يتردد في داخله حتى آخر نفسٍ: "هل كانت الشهوة التي سعيتُ وراءها تستحق كل هذا؟"

مع طلوع الشمس، تحركت المدينة ببطءٍ، كمن ينهض من حلمٍ ثقيلٍ. لم يكن سقوطُ يوسف انتصارًا لأحدٍ، لكنه كان مرآةً للجميع: أن الشهوة للسلطة إذا تُركت بلا قيودٍ، لا تحرق صاحبها وحده، بل كل من حوله.

وفي الصمت الذي خيّم بعد العاصفة، بدا أن المدينة نفسها تتعلم الدرس، ولو بثمنٍ لا يُحتمل.

وهنا يا فتى، أدرك الناس أن الأسطورة حقيقية، وأنها قد بدأت بالفعل، والكثير هرب من المدينة، والبعض بنى أكواخًا حولها، والقلة أرسلوا أولادهم إلى أقربائهم في مدنٍ بعيدة، كما فعل أبي مع والدك، فقد كان أصغرنا...

اليوم الخامس: "رقصة الدم"

الفصل الأول: عالم الظلام

في أعماق المدينة، حيث تختلط الأرصفة ببقايا السهر، وحيث تظل النوافذ المضيئة وحدها شاهدةً على من لا يعرف النوم، ينهض حيٌّ يُلقَّب بين الناس باسم "العالم السفلي".

هناك، عند زاوية شارعٍ تغرق في دخان العربات المهترئة وصراخ الباعة المتأخرين، ينتصب مبنى بواجهةٍ زجاجيةٍ ملونةٍ ينعكس عليها بريق نيونٍ متقطع، يحمل لافتةً تومض بحروفٍ حمراء: "نيران الليل".

لم يكن النادي الليلي مجرد مكانٍ للرقص أو الشراب، بل كان ملجأً للمنكسرين، أولئك الذين لفظتهم المدينة من دفء بيوتها، فأتوا يبحثون عن عزاءٍ في موسيقى صاخبةٍ لا تهدأ، وعن نسيانٍ في أجسادٍ تتمايل وتتصادم كأمواجٍ. هنا، تنبعث روائح العرق الممزوجة بالعطور الرخيصة، يتصاعد الدخان في طبقاتٍ كثيفةٍ حتى يخفي السقف، وتتعالى ضحكاتٌ خشنةٌ تتخللها صيحاتٌ سكرى، وكأن كل شيءٍ في الداخل يصرخ ضد العالم الخارجي.

في هذا الجو المضطرب، برزت دلال كالنجمة الوحيدة في سماءٍ معتمة.

طويلة القامة، شعرها الأسود ينساب كسيلٍ من الحبر على كتفيها، ووجهها يحمل مزيجًا من البراءة المفقودة والجاذبية الطاغية. كانت إذا صعدت خشبة المسرح، تشتعل القاعة فجأةً بالتصفيق والصفير، تتجه إليها كل العيون كما لو أن الضوء ذاته وُجد من أجلها. كانت خطواتها على الأرضية الخشبية أشبه بإيقاعٍ يملك سلطةً لا يملكها أحدٌ سواها.

أما سامية، فكانت دائمًا إلى جوارها، كظلٍ يتبع الجسد ولا يملك حيلة الفكاك. قصيرةٌ نسبيًا، ملامحها أقل بروزًا، حركتها مترددة أحيانًا، وكأنها لم تولد لتحتمل ثقل النظرات.

كل مرةٍ تخرج فيها مع دلال إلى المسرح، يلتفت الجمهور نحو دلال وحدها، يرمقها بعينٍ مشبعةٍ بالشهوة والانبهار، بينما تمر سامية بجانبهم كهواءٍ لا يُرى.

في إحدى الزوايا، جلس رجلٌ خمسينيٌّ بدينٌ يضرب على الطاولة بإيقاعٍ مع الأغنية وهو يصرخ: "دلال! يا ملكة الليل! وعنوان الجمال!"

فضحك الجمع من حوله وأعادوا الصراخ باسمها، بينما تراجعت سامية خطوةً صغيرةً وهي تحاول أن تخفي ارتجافة يدها. ذلك الصوت، ذلك الاسم، "دلال"، كان يطرق قلبها كسيفٍ، يعمّق

جرحًا قديمًا لم يندمل. لم تكن هذه المرة الأولى التي يبتلع فيها صدى دلال صوتها الداخلي. في تلك اللحظة، تذكّرت سامية البعيد، يوم التقت دلال لأول مرة.

كانت قاعةً صغيرةً لتعليم الرقص الشعبي، رائحة البخور تملأ المكان، والستائر مهترئة لكنها ملونة، وكأنها تحاول أن تتشبث ببعض بهجةٍ زائلة. كانت سامية يومها طفلةً خجولة، ترتدي فستانًا أحمر بسيطًا ورثته عن أختها الكبرى، واسعًا قليلًا عند الكتف، فضفاضًا عند الخصر. صعدت بخطىً مرتجفةٍ إلى الخشبة الخشنة، وقلبها يقرع صدرها كطبلٍ.

ثم ظهرت دلال.

فتاةٌ صغيرة مثلها، لكنها كانت مختلفة: ابتسامةٌ واثقة، نظرةٌ مشعّة، وجرأةٌ غير مألوفة. حين بدأ الرقص، تمايلت بخفةٍ لم يعرفها جسد سامية من قبل، وعندما انتهت الرقصة، تعالت التصفيقات من أمهاتٍ وباتٍ وقفن على الأطراف. حتى المدرّبة، التي بالكاد تبتسم، لمعت عيناها إعجابًا وقالت بصوتٍ حادٍ: "أحسنتِ يا دلال... لديكِ مستقبلٌ كبير."

تجمّدت سامية في مكانها، والحرارة تصعد من وجهها إلى عينيها. لم يصفق أحدٌ لها، ولم يقل أحدٌ اسمها. في تلك اللحظة بالتحديد، وُلدت بذرةٌ مظلمةٌ في أعماقها، بذرةٌ لم يلمحها أحد، لكنها راحت تكبر بصمتٍ مع كل يومٍ يمر.

"هل سأتألق مثلها يومًا؟" همست سامية لنفسها، وشفتاها ترتجفان كمن يخاطب شبحًا.

لكن الجواب لم يأتِ يومًا.

مرت السنوات، وكبر الحلم المشوّه. صارت سامية تراقب دلال كما يراقب سجين نافذته الوحيدة على السماء.

كلما خطت دلال نحو المسرح، خطا الحسد خطوةً أخرى داخل سامية. كان يتغذى على كل تصفيقة، على كل نظرة شغف يوجهها الرجال لصديقتها، على كل كلمة إعجاب تُرمى في الهواء وكأنها لا تستحق أن تنال منها شيئًا.

ولم يكن الحسد في قلبها مجرد شعورٍ عابر، لقد تحول إلى ظلٍّ حيٍّ يرافقها كرفيقٍ غامض، يقترب من أذنها في الليالي، يهمس لها:

"أنتِ لستِ أقلَّ منها... أنتِ أجمل، لكنهم لا يرون. يجب أن تريهم... يجب أن تنتزعي الضوء منها انتزاعًا."

كانت سامية تحاول أن تطرد هذه الهواجس، لكنها لم تستطع.

كلما اشتدت الأضواء على دلال، ازداد الظل سوادًا في داخلها. حتى جسدها بدأ يشعر بمرارة الغيرة: يدها ترتعش حين تلمح الجمهور واقفًا لها وحدها، قلبها يخفق كمن يطارد عدوًا، شفتيها تعضّان بعضهما حتى يسيل طعم الدم على لسانها.

في تلك الليلة بالذات، عندما تلاقت الأنوار مع أجساد الراقصات، وقفت سامية في الظل خلف الستارة.

عيناها تتبعان دلال، لكن هذه المرة لم يكن في بصرها مجرد إعجاب أو حسرة، بل شرارة أشبه بوعدٍ مظلم. شعرت أن حياتها كلها لم تكن سوى مقدمةٍ لهذه اللحظة، لحظةِ قرارٍ لا رجعة فيه. لم تتمتم بشيء، لم تصرخ، لم تبكِ. فقط حدقت في صديقتها المتألقة، وفي أعماقها تسلل الحسد لا كزائرٍ عابر، بل كمالكٍ جديدٍ لروحها.

الفصل الثاني: الانزلاق

كانت الليالي تتكرر كطقسٍ جهنميٍّ، تحمل في طياتها المشهد نفسه الذي يُغرق روح سامية في عذابٍ لا ينتهي: دلال في منتصف المسرح، متلألئة كجوهرةٍ نادرة، والجمهور يصطفّ أمامها، كأن كل الأنظار خُلقت لتوجَّه إليها وحدها.

كل خطوةٍ تخطوها دلال كانت تُشعل نيران التصفيق، وكل حركةٍ من يديها أو التفاتةٍ من عينيها تثير صيحات الإعجاب.

أمّا سامية، فكانت تقف في زاويةٍ باهتةٍ من المسرح، نصف جسدها مغمورٌ بالظل، تتصبب عرقًا تحت أضواءٍ لم تكن تخصها. كانت تحاول أن تبتسم، لكن الابتسامة تغدو قناعًا متصدعًا، يخونها مع أول رعشةٍ في شفتيها. حاولت أن تساير الإيقاع، أن ترفع ذراعها في اللحظة المناسبة، أن تدير جسدها بليونةِ راقصةٍ محترفة، لكن كل شيءٍ كان ينهار أمام بريق دلال.

حتى الهواء من حولها بدا أثقل، كأن الأوكسجين كله قد اجتمع عند أنفاس دلال، تاركًا لها بقايا خانقة. في تلك اللحظات، بدأ الصوت الجديد، الصوت المظلم، يزحف إلى أذنها. لم يكن صوتًا بالمعنى المعتاد، بل همسًا متقطعًا، كأن جدار عقلها نفسه قد انشقّ لينطق: "انظري إليهم... إنهم يعبدونها... وأنتِ؟ ظلٌّ باهتٌ على أطراف المسرح."

ارتجفت سامية، التفتت حولها بارتباك، كأنها تخشى أن يراها أحد وهي تسمع ذلك الصوت. لكن الموسيقى كانت تعلو، والأنوار تتراقص، ولا أحد يلاحظ ارتباكها.

حاولت أن تهمس لنفسها: "أنا بخير... ما زال عندي فرصة... سأتحسن غدًا..." لكن الصوت المظلم قاطعها، أكثر وضوحًا هذه المرة، أكثر ثباتًا: "كذبة! غدك لن يختلف عن أمسك. دلال خُلقت لتأخذ كل شيء، وأنتِ خُلقتِ لتصفقي لها من الخلف."

شعرت سامية بقبضةٍ في قلبها. أرادت أن تردّ، أن تصرخ في عقلها: "لا! سأثبت نفسي!" لكن حتى كلماتها كانت تتبخر، تذوب كقطعةِ ثلجٍ تحت لهبٍ لا يرحم. عندها بدأ الصوت يتغيّر، لم يعد مجرد همس، بل صار كيانًا، كأن ظلًا أسود جلس على كتفها، وأخذ يميل برأسه قرب أذنها: "إن لم تستطيعي أن تتفوقي عليها، فهناك طريقٌ آخر... خذي منها ما تملكه. كل شيء."

في تلك اللحظة، لم تعد ترى سامية المسرح كما كان.

الأضواء تلاشت، التصفيق صار كطنينِ ذباب، الوجوه انمحت. لم يبقَ في المشهد إلا جسد دلال وهي تدور بخفة، كأنها مركز الكون. وداخل سامية، تحوّل الشعور بالخذلان إلى كرةٍ ملتهبةٍ تتدحرج بلا توقف، تغذيها الصور القديمة:

صورة دلال وهي تفوز بالمركز الأول في مسابقة الرقص الشعبي، بينما سامية تتلقى جائزة الترضية؛

صورة الرجال يلتفون حول دلال في الكواليس، يمدحونها، يضحكون معها، بينما تمر سامية بجوارهم كظلٍّ شفافٍ لا يُرى؛

صورة أمها التي قالت لها ذات يوم: "أنتِ جميلة، لكن ينقصك شيء... ذاك البريق الذي تملكه دلال."

انفجرت في داخلها ضحكةٌ باكية، لم يسمعها أحدٌ سواها.

ضحكةٌ لم تخرج من فمها، بل من قلبها المهزوم. وحين تلاشت، عاد الصوت المظلم، أقرب من أي وقتٍ مضى، كأن نفسه اختلط بنفسها: "لقد حان وقتكِ يا سامية... ليس لتكوني ظلًا، بل لتُطفئي النور."

ارتجف جسدها كله، ولأول مرة، لم ترتعب من الصوت، بل على العكس، وجدت فيه عزاءً غريبًا، دفئًا مظلمًا يُغذيها.

وكأنها اكتشفت أن العزاء الوحيد في حياتها هو فكرة الانتقام.

رفعت عينيها نحو دلال، وكانت دلال في تلك اللحظة تبتسم للجمهور ابتسامةً واثقة. لكن سامية لم ترَ فيها إلا قناعًا بغيضًا يستحق أن يُمزّق.

وعندها، عرفت أن الليالي القادمة لن تكون مجرد رقص، ولا مجرد منافسة. لقد انزلقت داخل هاويةٍ لا عودةَ منها.

الفصل الثالث: من الظلام

كانت القاعة شبه مظلمةٍ إلا من أضواءٍ بيضاء تسقط على المرآة الممتدة من الجدار إلى الجدار. انعكست فيها صورةُ دلال، متألقةً حتى وهي وحدها، تتدرب بخفةٍ أشبه بالطيور.

خطواتها على الخشب كانت إيقاعًا واضحًا، كل ضربةِ كعبٍ كأنها إعلانُ انتصارٍ جديد. جسدها ينحني، يلتف، يشتعل، ثم يعود مستقيمًا بكبرياء من يعرف أنه محاطٌ بالإعجاب حتى في غياب الجمهور.

في الزاوية، جلست سامية تراقب. يداها متشابكتان بعنف، أناملها تغور في كفها حتى شعرت بوخزِ الدمِ تحت الظفر. لم تكن ترى إلا صورةً واحدة: دلال تتراقص في وسط الضوء، بينما ظلها هي يتكور على الأطراف. شعرت كأن أنفاسها تخرج أثقل من اللازم، كأنها تدفع جبلًا من صدرها مع كل شهيق.

همست لنفسها: "غدًا... سأبذل جهدًا أكبر..."

ضحك الصوت في داخلها ضحكةً قصيرة، حادة، كأنها صفعة: "غد؟ كم من غدٍ مضى؟ كم مرةٍ وعدتِ نفسكِ؟ الجهد لا يجلب النجاح، النجاح يُؤخذ بالقوة... أو يُسرق."

ارتفعت دلال فجأةً على أطراف أصابعها، أدارت جسدها بخفةٍ هائلة، ثم وقفت أمام المرآة، ابتسمت لابتسامة انعكاسها،

وضحكت ضحكةً صغيرة، ساخرةً من غير قصد. لكن سامية شعرت وكأن الضحكة وُجهت لها شخصيًا، كأنها إعلانُ ازدراءٍ مكتوم.

وعند تلك اللحظة، بدأت الأفكار تتحرك: خططٌ صغيرة أولًا، مجرد خواطر، كأنها ألعابٌ في ذهنها ـ ماذا لو تعطّل حذاءُ دلال في منتصف العرض؟ ماذا لو انزلقت فجأة؟ ـ لكنها أفكارٌ لم تبقَ ألعابًا. سرعان ما تحولت إلى بذورٍ جدية.

ابتسم الظل في المرآة، وهمس في أذنها: "لقد زرعتُ فيكِ البذرة. الآن دوري انتهى. أنتِ من سيسقيها بدمكِ وعرقكِ وكراهيتكِ."

وانزلقت سامية، للمرة الأولى، من خانة "المتألمة" إلى خانة "المخططة". لم تعد الضحية فقط، صارت تلميذةَ الظلام.

الفصل الرابع: المؤامرة

كانت الليلة في نيران الليل أثقل من أي ليلة سابقة.

الأضواء النيونية تتراقص كألسنة لهب سكرى، تتغير من الأحمر إلى الأزرق إلى الأخضر كأنها أرواح مشوهة تطارد بعضها في الفراغ. الدخانُ المتصاعد من السجائر امتزج برائحة العرق والكحول، فكون غلالة خانقة فوق الرؤوس.

في الزوايا، رجال متعبون يضحكون ضحكات جوفاء، ونساء يُلوحن بأياد مثقلة بالخواتم، بينما الموسيقى الصاخبة تتغلغل في العظام كأنها مطرقة لا تهدأ. وسط هذا الصخب، جلست سامية في ركن مظلم يكاد يخفي ملامحها. كانت عيناها مثبتتين على دلال التي اعتلت المسرح بخطوات واثقة، جسدها يلتف كأفعى حول الإيقاع، والضحكات والتصفيق ينفجران مع كل حركة منها. شعرت سامية كأن كلَّ صوتِ تصفيق صفعة تهوي على وجهها، كأن كلّ ابتسامة من الجمهور خنجر جديدزيغوص في صدرها.

لكن الليلة، لم تكن سامية أسيرة صمتها. قررت أن تتحرك، أن تزرع بذور الشك في العقول. نهضت ببطء، اقتربت من طاولة يجلس عندها رجل ضخمُ البنية، بوجه غليظ. انحنت بجانبه وهمست، وصوتها يقطر خبثًا:

"أتعرف دلال؟... يقال إن جمالها ليس سوى قناع... قناع تخفي وراءه ماضيًا قذرًا."

رفع الرجل حاجبه في دهشة، لكنه سرعان ما ابتسم ابتسامة سكرى وقال: "قذر أم لا... من يهتم؟ انظر إليها فقط!" ثم انفجر ضاحكًا، وأدار وجهه عائدًا إلى الرقصات.

تراجعت سامية خطوة إلى الخلف. قلبها ارتجف، لكنها لم تستسلم. اقتربت من امرأتين تتبادلان الضحكات عند البار، وبدأت حديثها بصوت خافت:

"هل تصدقن أن دلال تخادع الجميع؟... لقد سرقت الحركات من غيرها، وما نجوميتها إلا وهم."

المرأة الأولى نظرت إليها باستخفاف وردت: "كلنا نخدع... لكن من يهتم؟ هي على المسرح ونحن هنا." ثم استدارت تكمل شرب كأسها. أما الثانية فضحكت ضحكة قصيرة، كأنها تسخر من سذاجة سامية، ثم قالت: "أنتِ تحسدينها... أليس كذلك؟"

كلماتها سقطت كحجر ثقيل في أعماق سامية. شعرت بوجهها يحترق، لكنها غادرت بسرعة متظاهرة باللامبالاة.

في كل زاوية حاولت، وكل كلمة همست بها، لم تحصد إلا اللامبالاة، أو السخرية، أو الضحك السمج. كأن كلماتها تتبخر في الهواء قبل أن تصل إلى آذانهم، كأن أصوات الموسيقى تلتهمها وتلقيها في الفراغ.

حين اعتلت دلال المسرح في عرضها الكبير، كانت سامية تترقب بصبر أن ترى بوادر الشك، أن ترى نظرات باردة من الجمهور، أن تسمع همسات تشكك. لكنها لم تر شيئًا. كان التصفيق أشد من أي وقت مضى، الهتافات تعالت حتى كادت تهز الجدران، والعيون كلها مسمّرة على دلال وحدها.

في تلك اللحظة، علا صوت الظلام في أعماقها، بصوت أجش كالسخرية الممزوجة بالغضب:

"حمقاء... حمقاء كما كنتِ دومًا! أتظنين أن هؤلاء الخنازير يهتمون؟ طعامهم القمامة... قلوبهم ميتة. كل شيء هنا متاح، كل شيء مباح. كلماتك لا تساوي شيئًا. صدّقي أو لا تصدّقي: النور تلاشى منذ زمن بعيد، وما بقي ليس إلا وهمًا يرقص أمامك."

سامية شعرت بدوار، كأن الأرض انشقت تحت قدميها.

جلست في الظل من جديد، عيناها على دلال وهي تدور وسط هتاف الجماهير. في داخلها، كان صوت الظلام يضحك ضحكة طويلة، قاسية، تهتز معها جدران عقلها. حتى لو هناك منهم من لديه قصة مؤلمة أو غيره، "لقد اختاروا حياة الحظيرة، أن يعيشوا كقشور فارغة لا تحمل وزنًا. لا تتخيلي أن الهمس يغيّرهم. لا تكوني غبية... إذا أردتِ أن تقتلي النور، فلا بد أن تفعلي أكثر من ذلك. الدم وحده يترك أثرًا، أما الهمسات... فهي ريح عابرة في ليلة خانقة."

أمسكت سامية بيدها على صدرها، كأنها تخشى أن يسمع أحد خفقان قلبها. شعرت بالعرق يتصبب من جبينها رغم برودة التكييف. لم تكن تعرف إن كان الفشل يزيدها ضعفًا أم يدفعها إلى الجنون. لكن شيئًا واحدًا كان واضحًا: الحسد ينهشها كذئب جائع، ولن يكتفي بالشائعات.

جلست، تحدق في الأضواء المتراقصة وهي تتشوه في عينيها، تتحول إلى قطرات دم حمراء تنزف على أرضية النادي. في تلك اللحظة أدركت أن ما بدأ بالهمس، سينتهي حتمًا بالدم.

الفصل الخامس: رقصة الدم

لم تكن الكواليس تلك الليلة سوى دهليز مظلم يختلط فيه العرق بروائح المساحيق الرخيصة، والضحكات المتقطعة للفتيات اللواتي يخفين بوجوههن المنهكة انكسارًا طويلًا.

هناك، جلست دلال، متعبة بعد عرض متوهج، جسدها يلمع من أثر الأضواء، وعيناها نصف مغمضتين من الإرهاق، حين مدّت يدها المرتجفة إلى الكأس الموضوعة على الطاولة. لم تفكر، لم تتردد، ابتلعت الرشفة كمن يتلقف الماء من نبع مألوف. لم يكن في بالها أن يدًا أخرى، يدًا حاقدة، كانت قد مرّت على ذات الكأس قبل دقائق.

في الظل، بين الأبواب الضيقة والستائر المهترئة، كانت سامية تراقب. قلبها يخفق كطبل مدوٍّ، يكاد يفضحها. أحست أن كل نفس تتنفسه مسموع للعالم، وأن كل نبضة في عروقها تصرخ: ها أنا أرتكب الجريمة. ومع ذلك، كانت ابتسامة باردة، غير مألوفة على وجهها، ترتسم بخطوط متوترة، كأنها لا تخصها، بل تخص مخلوقًا آخر يسكنها.

مرت لحظات. أغمضت دلال عينيها فجأة، يدها ترتجف، وجسدها مال إلى الخلف، كمن يوشك أن يسقط. شعرت سامية أن الأرض قد استجابت لها، أن السم قد أنجز مهمته. لكن لا!

فجأة، كأن قوة غامضة انبعثت من أعماقها، نهضت دلال، تماسكت، وسارت نحو المسرح من جديد.

ارتفعت الستارة. الأضواء عادت تُسلَّط على جسدها. كان العرق يتصبب من جبينها، خطواتها الأولى بطيئة، متعثرة، لكنها – ويا للمفارقة! – تحولت تدريجيًا إلى رقصة مدهشة، رقصة يختلط فيها الموت بالحياة، والانهيار بالقوة، والصراع الداخلي بجمالية الجسد. بدا الأمر كأنها لا ترقص للجمهور، بل تحارب الموت نفسه. وكلما اهتزت الأرض تحت أقدامها، علا التصفيق، وتفجر الصراخ من أفواه المخمورين:

"إنها مذهلة!"

"انظروا إليها! لا مثيل لها!"

تشنج وجه سامية في الظلام. شعرت أن العالم كله يتآمر عليها: السم الذي لم ينجح، الجمهور الذي لا يرى إلا بريق دلال، الأضواء التي لا تعرف سوى جسدها. تردد في رأسها ذلك الصوت المألوف، الصوت الذي اعتاد أن يأتيها في لحظات الليل الموحش، الصوت الذي لا يُرَى لكنه يتسلل كالأفعى:

"أرأيتِ؟ حتى الموت خانكِ... إنها أقوى منكِ... خذي الخنجر الآن، أنهي المسرحية بدمٍ حقيقي..."

ارتجفت يدها وهي تسحب من جيبها خنجرًا صغيرًا. لم يكن سلاحًا لامعًا أو حادًا كخناجر المسرح، بل أداة خشنة، يلمع نصابها ببرودة قاتلة. قبضت عليه وكأنها تقبض على مصيرها، على حياتها كلها.

الستارة تهتز من قوة الموسيقى، أضواء ملونة تتطاير في فضاء النادي كنيازك صغيرة، العرق والعراميد تختلط برائحة الخمر والسجائر. في قلب هذه الفوضى، شعرت سامية أن خطاها تجرها نحو الكواليس. لم تعد تسمع التصفيق، لم تعد ترى الوجوه، كل ما رأته أمامها كان ظهر دلال وهي تتمايل، كأنها نجمة تبتلع سماء الليل.

"لماذا ليست أنا؟" همست سامية بصوت مسموع لنفسها.

"لأنك ظلّها... والظل لا يصبح نورًا." رد الصوت المظلم من أعماقها.

كادت عيناها تدمعان من القهر. عضّت على شفتها حتى سال منها دم خفيف، ليمتزج طعمه بالمرارة التي تسكن حلقها.

تقدمت أكثر، خطوة بعد خطوة، حتى كادت تصل إلى حافة المسرح حيث ستقفز في أية لحظة لتغرس الخنجر في الجسد الراقص.

الجمهور لا يعلم شيئًا. كانوا يهتفون، يضحكون، يضربون الكؤوس على الطاولات. أحدهم سكب شرابه على الأرض دون أن يلاحظ،

آخر يصرخ كالمجنون: "دلال، دلال، دلال!"، بينما سامية تسمع الأسماء كطعنة في قلبها.

لحظة صمت قصيرة سيطرت على عقلها. ماذا لو رآها أحد؟ ماذا لو فشلت ثانية؟ ماذا لو سقطت هي قبل أن تسقط دلال؟ في تلك اللحظة، بدا لها المسرح كقوس جحيم، والجمهور كقضاة قساة يحكمون عليها بالموت قبل أن تفعل شيئًا. لكنها لم تتراجع. ارتعشت أصابعها على نصاب الخنجر، وابتسمت ابتسامة شاحبة، امتزجت فيها الشهوة بالخوف، اللذة بالدم. وعند تلك اللحظة، لم يكن في النادي شيء سوى مفارقة واحدة: جسد يتمايل في مواجهة الموت متحديًا، ويد مظلمة تتهيأ لتسلبه الحياة.

الفصل السادس: الفوضى المميتة

لم تكن خطوات سامية ثابتة، بل متعثرة كأنها تخطو فوق جمرٍ حارق. قلبها كان يطرق صدرها طرقًا عنيفًا، حتى شعرت أن كل نغمة تصدر من موسيقى النادي تتزامن مع دقاته، وكأن الجدران نفسها تفضح ما يدور في داخلها. في يدها قبضت على الخنجر، يختبئ تحت عباءتها القصيرة، يبرد حينًا ثم يسخن حينًا آخر، كما لو أنه يعرف أنه مقبل على ارتشاف الدم.

دلال، تلك التي لطالما سرقت الأضواء والأنفاس، وقفت وسط المسرح، جسدها يتمايل بخفة الطيور، وابتسامة باهتة ارتسمت على شفتيها رغم الألم الخفي الذي ينهشها من أثر السمّ. لم ينتبه أحد لاصفرار بشرتها، ولا لتعرّق جبهتها، فقد كان الجمهور مأخوذًا بحركاتها كأنها نشيد من لحم ودم.

اقتربت سامية بخطوات بطيئة، مترددة، ثم أسرع قلبها أكثر فأكثر. في تلك اللحظة، سمعت الصوت، ذاك الصوت الذي رافقها طيلة الأيام الماضية، صوت الظلام الذي خرج من أعماقها ليقودها كأنها دمية بين يديه: "الآن... الآن، لا مجال للتراجع. طعنة واحدة، وستنتهي سنوات الظل. ستكونين أنت الضوء، أنت التي يتحدث عنها الجميع، أنت التي يخشونها ويعبدونها في آنٍ واحد."

ارتجفت يدها، لكن عينيها انغرستا في جسد دلال، مثل عيني حيوان مفترس يراقب فريسته. وما إن اقتربت حتى رفعت يدها بخفة شيطانية، وبحركة خاطفة غرزت الخنجر في بطن دلال.

كان الصوت المكتوم لا يشبه صرخة ولا أنينًا، بل مزيجًا من الاثنين؛ هواء ينفلت من صدر امرأة لم تتوقع الغدر، وصوت حاد لجسد يتمزق. سقطت دلال على الأرض، يداها تضغطان على الجرح، ودمها يتدفق ساخنًا، يغمر الخشب أسفلها كأنه لوحة رُسمت بألوان الجحيم.

تجمد الجمهور للحظة، وكأن الزمن توقف. ثم فجأة، صرخ أحدهم، وتبعه آخر، لينفجر المكان كله في فوضى عارمة.

المقاعد سقطت، الكؤوس تحطمت، الدخان اختلط بالصراخ، والأضواء المتراقصة تحولت إلى دوامات مرعبة، كأن النادي لم يعد مكانًا للغناء والرقص بل مسرحًا للقيامة.

أما سامية، فلم ترَ شيئًا من ذلك. على العكس، شعرت أن الدم الذي غمر قدميها صار زينة حمراء، كأنها ترتدي حذاءً ناريًا صُنع خصيصًا لها. رفعت ذراعيها وبدأت تدور حول جسد دلال الملقى أرضًا، ترقص بخطوات غير متزنة، رأسها مائل إلى الخلف، ضحكتها المبحوحة تخرج كصدى من أعماق الكهوف.

قال الصوت من جديد، لكن هذه المرة كان أقرب، كأنه يتكلم من فمها هي: "أترين؟ لقد أصبحتِ الملكة، الدم هو تاجك، والرقص

جناحاك. انظري كيف يفرّون جميعاً! أنتِ الانتصار، أنتِ الخطيئة التي تُخلّد."

لكن في عمقها، شيء آخر كان يصرخ؛ صوت باهت،

متلاشي، يكاد لا يُسمع، كأنه صدى سامية القديمة، الطفلة التي كانت ترقص بجانب دلال في أول درس، الطفلة التي لم تكن تعرف معنى الحسد. دمعة وحيدة انحدرت من عينها، لكنها سرعان ما ابتلعتها ضحكة هستيرية جديدة.

على المسرح، كانت دلال تتلوى، تحاول رفع يدها لتقول شيئًا، لتصرخ، لكن صوتها لم يتجاوز شهقة ضعيفة. التقت عيناها بعيني سامية للحظة قصيرة، وكانت تلك النظرة كافية لتحمل كل اللعنات: دهشة، خيانة، ألم، وسؤال لم يُطرَح بعد: "لماذا؟".

وفي أسفل القاعة، كان بعض الحاضرين يحاولون الاقتراب لإنقاذ دلال، لكن موجة الذعر كانت أكبر؛ رجال يدفعون بعضهم، نساء يصرخن بأصوات حادة، نادل يرمي صينيته على الأرض ويهرب، والموسيقى. يا للمفارقة. لم تتوقف بعد، كأنها تعزف نشيدًا جنائزيًا يواكب الفوضى.

سامية وسط كل ذلك كانت تدور، تدور بجنون، شعرها يتطاير، ودم دلال يرسم دوائر حمراء تحت قدميها. بدت كعروس جهنمية في ليلة زفافها مع الشيطان، حيث العريس هو الدم، والحضور هم الظلال الهاربة.

وفي لحظة، صرخت صرخة مدوية، صرخة لم تكن فرحًا ولا ألمًا، بل مزيجًا من كل ما حملته من قهر وحسد وظلام.

صرخة جعلت بعض من هم على وشك الهروب يتجمدون لحظة، ينظرون إليها بذهول ورعب، قبل أن يفرّوا أكثر جنونًا.

وهكذا تحولت الليلة التي بدأت بالأنغام والرقص إلى مسرح جريمة، والبطلة. أو الجانية. واقفة وسط الدماء، تحتفل بانتصارها الكاذب، دون أن تدري أن تلك اللحظة، بالذات، لم تكن تتويجًا لها، بل بداية سقوطها في هاوية لا قرار لها.

الفصل السابع: الخاتمة – الموكب الأخير

القاعة ما زالت تهتز كجرح مفتوح، موسيقى مشروخة تخرج من سماعات تنزف شررًا، أجساد متدافعة، صرخات تائهة بين هلع وانبهار، والدماء ترسم خطوطًا متعرجة على الأرض الخشبية، كأن المسرح نفسه تحوّل إلى مقبرة.

فجأة اخترق المكان صوت معدني حادّ: صفارات الشرطة. تبعتها الأقدام الثقيلة وهي تدوس الدماء الباقية، لتختلط ببقع العرق والخوف. رجال بزيّ داكن اقتحموا القاعة كأشباح حديدية، وجوههم بلا ملامح، لا يحملون سوى القانون كالسوط الصامت. الجمهور انكمش على نفسه، بعضهم فرّ نحو الأبواب، آخرون وقفوا كتماثيل مشلولة. وحدها سامية بقيت في الوسط، على الخشبة، يداها ملطختان بالدم، والسكين ما زالت ترتجف بين أصابعها. حين مدّ الشرطي الأول يده ليقبض عليها، أطلقت ضحكة عالية، هستيرية، شقت السكون مثل زجاج يتحطم.

"هل ترون؟ لم أكن وحدي! كان معي... كان معي دائمًا!"

عيناها كانتا تحدّقان في الفراغ، تبحثان عن ذلك الصوت الأسود الذي رافقها منذ البداية. وفي اللحظة نفسها، دوّى في رأسها التصفيق: صديق الظلام يصفق كأنه يبارك المشهد الأخير، كأن المسرح أُسدل ستاره للتو.

جرّها رجال الشرطة بقسوة، أطاحوا السكين بعيدًا، كبّلوا معصميها. وبينما كانت تُساق عبر القاعة، التقت عيناها بجسد دلال الممدّد، والدماء حولها تتسع كبحيرة حمراء. للحظة، شعرت سامية أن الأرض ابتلعتها. فارتجف جسدها كله، وصوتها انكسر إلى بكاء مبحوح، بين الجنون والندم.

الجمهور صمت. لم يعد أحد يصفّق أو يصرخ. كانوا جميعاً يراقبون موكب الهزيمة يمرّ أمامهم. وعند الباب، كان يقف رجل عجوز بثياب بسيطة، عيناه غائرتان كأنهما شهدتا قرونًا من الخطايا. انحنى قليلًا، ثم رفع سبابته، وأشار إلى الدم على الأرض. تكوّم الناس حوله في دائرة صامتة. صوته خرج واهنًا، لكنه اخترق القاعة كلها: "اليوم سقطت واحدة... وغدًا قد نسقط جميعًا.

كل خطيئة تلد أختها، وكل دم يراق، يمهّد لدم آخر.

لا تصدّقوا أن المأساة انتهت. اليوم السابع ليس ختامًا... بل بوابة لليوم الثامن، يوم بلا خلاص."

ثم صمت، وأدار ظهره، وغادر بخطوات بطيئة، تاركًا خلفه همهمةً ثقيلة بين الناس، كأن نبوءة قد زُرعت في قلوبهم. وهكذا أُسدل الستار: سامية تُسحب إلى العتمة، دلال ترقد بين الحياة والموت، والجمهور يتفرّق وفي أذنه ترنّ تلك الكلمات – عن يومٍ قادم، لا يعرف أحد إن كان يحمل الغفران أم الخراب.

اليوم السادس: الكبرياء

الفصل الأول

فتاة اعتقدت أنها كل شيء في القصر الأبيض الكبير، حيث ترتفع الأعمدة كأنها أوتاد غرور ضاربة في السماء، وُلدت سما، وترعرعت في أجنحة مزخرفة بالرخام والمرايا اللامعة. لم يكن بيتها بيتًا بل مسرحًا مفتوحًا لكبريائها، فكل زاوية فيه تعكس صورتها، وكل خادم فيه يردد صدى كلماتها.

في صباح بارد من شتاء العاصمة، جلست سما أمام المرآة الضخمة في غرفتها، المرآة التي كانت أكبر من جسدها بأضعاف، حتى بدت صورتها فيها كأنها أيقونة مقدّسة. مدّت يدها إلى مشط من عاج أبيض، وأخذت تمشط شعرها الأسود اللامع بحركات بطيئة، كأنها تؤدي طقسًا ملكيًا. ثم قالت بصوت مرتفع وهي تحدّث انعكاسها:

"أنا الأفضل... الأفضل في كل شيء."

تردّد الصوت في الغرفة الواسعة، كأن الجدران نفسها تنحني خاضعة لتلك الجملة.

طرقت الخادمة الباب بخجل، ودخلت حاملة صينية الإفطار.

وضعت الصينية على الطاولة الصغيرة، وحاولت أن تهمس بتحية صباحية. لكن سما لم تلتفت إليها، بل رمقتها من فوق كتفيها بازدراء وقالت: "تأخرتِ. هل تظنين أني سأنتظركِ مثل سائر الناس؟"

ارتبكت الخادمة، وانحنت بسرعة، واعتذرت بصوت مرتجف. لكن سما أغمضت عينيها لحظة، وشعرت بانتشاء غريب وهي ترى خوف امرأة تكبرها بعشرين عامًا. ذلك الخوف بدا لها دليلًا على تفوقها، على أن العالم كله موضوع تحت قدميها.

ومع ذلك، حين خرجت الخادمة وأُغلق الباب، غزا قلبها إحساس غامض بالفراغ. جلست أمام المرآة، نظرت في عينيها طويلًا، وشعرت للحظة أن انعكاسها ينظر إليها ببرود، كأنها ليست جميلة بما يكفي، ليست عظيمة كما تقول.

عندها سمعت ذلك الهمس... خافت في البداية، لكنها ميزت صوته: صوت صديق الظلام.

"تابعي يا سما... قوليها مجددًا. قولي إنكِ الأفضل... الأفضل فوق الجميع."

شهقت، ثم همست وهي تبتسم لنفسها: "أنا الأفضل، نعم، الأفضل."

ضحك الصوت ضحكة خفيفة، كالريح حين تصفر بين الأعمدة المهجورة، ثم صمت.

في المدرسة، كانت ترتدي زيًا أنيقًا مُفصّلًا خصيصًا لها، يختلف عن زيّ الطالبات الأخريات، كأنها أرادت أن تذكّر الجميع بمكانتها. جلست في الصف الأخير، وقد وضعت حقيبتها الجلدية الفاخرة على الطاولة بلامبالاة. دخلت المعلمة، وبدأت تشرح الدرس، بينما كانت الطالبات يكتبن باهتمام. لكن سما لم تُخرج قلمًا، بل اتكأت على الكرسي وأطلقت نظرات متعالية.

رفعت المعلمة عينيها نحوها، وسألتها بصرامة: "سما، أين دفترك؟ ألم تكتبي شيئًا؟"

ابتسمت سما ابتسامة باردة وقالت: "ولماذا أكتب؟ المعرفة تأتي إليّ. لست بحاجة لأمثال هذه الدروس. ربما تحتاجون أنتنّ، أما أنا..."

ثم رفعت يدها وأشارت إلى صدرها كأنها تشير إلى مقام أسمى: "أنا مختلفة."

ساد الصمت بين الطالبات، بعضهن تبادلن نظرات الاستغراب، وأخريات ضحكن ساخرات. المعلمة حدّقت فيها بغيظ، لكن في عيني سما انعكس انتصار: لقد ربحت الجولة. في الفسحة، تجمّعت حولها بعض الفتيات، نصفهن بدافع الفضول ونصفهن الآخر طمعًا في القرب منها. راحت تتحدث عن نفسها، عن رحلاتها في الصيف إلى الخارج، عن فساتينها التي لا يملك مثلها أحد، عن الحفلات التي تُقام في قصر والدها، وعن السيارات السوداء التي

تنتظرها عند بوابة المدرسة. كانت كلماتها تتدفق كأنهار من ذهب، لكن في أعماقها كان هناك شعور خفي بأن هذا الذهب هش، قابل للتفتت إذا توقفت عن التحدث لحظة واحدة.

وفجأة، مرّت بجوارها فتاة هادئة الملامح، بسيطة الثياب، لكنها تحمل في يدها كتابًا سميكًا. التفتت الطالبات إليها للحظة، كأن حضورها الصامت أثار اهتمامًا عابرًا. وهنا، غلا الدم في عروق سما: كيف تجرؤ هذه الفتاة على سرقة بضع نظرات؟! نهضت بسرعة، وقفت أمامها وقالت بصوت مرتفع ليسمع الجميع:

"أيها الناس، انظروا... هذه تحمل كتابًا كأنه تاج، لكنها لا تعلم أنني أنا التاج الحقيقي."

ضحك بعض الطالبات، وانسحبت الفتاة بخطوات خجولة، بينما ظلّت سما واقفة كأنها ملكة انتصرت في معركة. في المساء، عادت إلى القصر. كانت الشموع مضاءة في الردهات، والخدم مصطفّون بوجوه بلا ملامح. صعدت الدرج الرخامي ببطء، كل خطوة تصدر صدى كأنها خطوات ملك تصعد نحو السماء. وقفت على الشرفة العالية، نظرت إلى المدينة المظلمة في الأسفل، نعم، هذا هو المكان الذي استحقّتْه...

أتى الصوت ذاته، صديق الظلام، أكثر وضوحًا هذه المرة:

"نعم يا سما... أنتِ فوق الجميع. لكن تذكّري: كل من يرتفع... لا بد أن يسقط. وأنا سأكون هناك حين تسقطين."

ارتجفت، لكنها رفعت ذقنها بعناد وقالت متحدّية: "أنا لن أسقط أبدًا."

ثم دخلت الغرفة وأغلقت الباب خلفها، بينما انعكاسها في المرآة بدا كأنه يبتسم بسخرية لم تستطع تفسيرها.

الفصل الثاني: مرآة الأب

كانت القاعة غارقة في أضواء بيضاء باهتة، تتساقط من ثريات معلّقة كسيوف من زجاج، تُرسل أشعتها نحو المقاعد حيث جلست عشرات الوجوه المتطلعة، وجوه يكسوها فضول بارد أكثر من الحماسة.

لم يكن أحد في القاعة يظن أنهم اجتمعوا لأجل طفلة صغيرة.

كان الجميع يدرك أن وراء حضور "سما" ثقلًا آخر، ظلًّا يملأ المكان حتى قبل أن يبدأ الحفل: ظلّ الأب. الرجل الذي كانت سيرته وحدها كافية ليُقيم الناس صامتين أو مُصفّقين دون نقاش. في تلك الليلة، لم يكن المسرح مُعدًّا لسما بقدر ما كان مُصمَّمًا ليجعل منها صدىً لصورة والدها، نسخة من مجده الممتد، ولو كان على حساب طفولتها.

دخلت "سما" إلى القاعة، خطواتها صغيرة، لكنها مغطاة بثوب حريري طويل يجرّ وراءه همهمة الأضواء وكأنها أجنحة لا تعرف الطيران. رفعت رأسها كما لقّنها أبوها عشرات المرّات أمام المرآة: "ارفعي رأسك، لا تنظري إلى الأرض، أنتِ من ستكملين ما بدأته." أطاعت، لكنها شعرت في أعماقها بثقَل لا تعرف له اسمًا. كان الرأس المرفوع يبدو كأنه رأس آخر، ليس رأسها هي، بل رأس الأب الذي استعار طفولتها ليزرع فيها صلابته.

من الصف الأول، جلس الأب يراقب. عيناه لم تكونا تتابعان الجمهور، بل كانتا مثبتتين على الصغيرة، كأنهما خيوط تحرّكها.

رفع يده قليلًا، إشارة بالكاد مرئية، فإذا بالقاعة تنفجر تصفيقًا. لم يكن التصفيق عفويًا، بل أشبه بطقس جماعي.

كانوا يصفقون له فيها، لا لها. كل عين في القاعة كانت تبحث عن عينيه لتتأكد: "هل نُصفّق الآن؟ هل يكفي هذا القدر؟"

وقفت سما وسط الأضواء، قلبها يدق كعصفورٍ اصطيد ووضع في قفص مذهّب. حاولت أن تبدأ بالكلمات التي حُفرت في ذاكرتها: جُمَل عن العظمة، عن الامتداد، عن المستقبل. كلمات لم تفهم معناها كله، لكنها رددتها كما يردد الطفل سورة تعلّمها للتو. الصوت خرج أكبر من عمرها، وكأنها تقلّد صوتًا لا يخصّها. وفي لحظة عابرة، وسط الصمت الموحش، ضحكت. ضحكة قصيرة، صافية، خرجت من حيث لا تدري، ضحكة طفلة وجدت نفسها فجأة في لعبة لم تفهم قواعدها. بعض الحضور تبادل ابتسامات مرتبكة، لكن الأب قطعها بنظرة واحدة صارمة جعلت الضحكات تختنق قبل أن تولد.

في داخلها، كانت "سما" تسمع صوتين. الأول: صوتها هي، الطفلة التي تكره الثوب الثقيل وتخاف من الأضواء وتشتاق أن تجري إلى الخارج حيث العشب والهواء. والصوت الآخر: صوت أبيها، حاضرًا في رأسها كما هو حاضر في الصف الأول. كان يهمس: "تماسكي. أنتِ

اسمي. أنتِ مرآتي. إن ضحكتِ ضحكوا مني، وإن بكيتِ بكيتُ فيكِ."

وكان الصراع أشبه بمطرقة تضرب رأسها الصغير: هل هي ابنة تبحث عن دفء أم وريثة مجبرة على ارتداء قناع أكبر من جسدها؟

الجمهور من جهته بدا كأنه شريك في مسرحية غامضة.

بعضهم كان يصفق وهو ينظر إلى الأرض، كأنما يخجل من نفسه. بعضهم كان يصفق وهو يتابع الأب بعينيه فقط، خشية أن يتوقف فيراهم. قليلون جدًّا، ربما أقل من أصابع اليد، حاولوا أن ينظروا إلى "سما" كطفلة، لكن سرعان ما ابتلعهم الجو الكثيف للقاعة. كانت الهيبة التي بثّها الأب أثقل من أي محاولة للصدق.

حين انتهى المشهد، أُطفئت الأضواء ببطء، كأنها تُغلق أبواب قاعة محكمة صدر فيها الحكم مسبقًا. تلاشى التصفيق تدريجيًّا، لم يبقَ منه إلا رجع ضعيف يشبه تنفّسًا متقطعًا.

وقفت سما مذهولة: لم تفهم هل كانوا يصفقون لنفسها أم لأبيها، وهل هي على المسرح لأنها تستحق أم لأنها وُضعت هنا كدمية في يد رجل يعرف كيف يزرع صورته في الآخرين.

في تلك اللحظة الصغيرة بين انطفاء الضوء وعودة الصمت، شعرت بوحدةٍ لم تعرفها من قبل. الوحدة التي لا تشبه خوف الأطفال من العتمة، بل تشبه إحساس إنسان بالغ يقف عاريًا أمام جموع لا ترى فيه، بل ترى غيره. كان قلبها يصرخ طلبًا ليد تمسك

يدها بصدق، لابتسامة لا يحكمها رهبة ولا سلطة، لكنها لم تجد إلا عينين صارمتين، عيني الأب، تبتسمان برضا خفيّ.

ابتسامة الأب كانت آخر ما رآه الجميع قبل أن يغادروا القاعة. ابتسامةُ رجلٍ لا يرى ابنته، بل يرى نفسه فيها. لم يكن ذلك اليوم ميلادًا لـ"سما"، بل كان إعلانًا رسميًّا أن الأب وجد مرآته التي ستستمر بعده: مرآة صغيرة، مدللة، مقيّدة، لكنها ليست حرة أبدًا.

تسير خلف والدها إلى البيت، وفي غرفتها، كان ذلك الظلام في مرآتها ينظر إليها، وكانت دمعة تريد أن تنزل من عينها، لكنها سرعان ما مسحتها بإصبعها وابتسمت ابتسامةً متكبرة:

"نعم... ربما أنتم محقون. الوحدة... هي ثمن العظمة."

في المرآة، لم ترَ وجهها كما هو، بل صورةً أكبر من الحياة، صورةَ امرأةٍ ترتدي تاجًا خفيًّا لا يراه أحدٌ سواها. أتاها الجواب، الصوت يهمس في أذنها بلا توقف، يلفّها كعباءة:

"لا تضعفي. لا تبحثي عن أصدقاء، فهم لا يستحقونك. أنتِ خُلقتِ لتعظَّمي، لتُعبدي، لا لتُصادقي."

وفي ذلك المساء، جلست سما على الشرفة العالية، نظرت إلى المدينة المظلمة تحتها، أنوارها متفرقة كجمراتٍ صغيرة، فأحسّت أنها تجلس فوق الجميع، وأن العالم بأسره ينام أسفل قدميها. لكنها، وسط هذا المجد الموهوم، لم تسمع سوى صدى واحدٍ

يتردد في صدرها: صدى الوحدة التي يحاول كبرياؤها أن يخنقها، لكنه في الحقيقة يضاعفها حتى تصير جرحًا لا يُرى.

الفصل الثالث: إلى القمّة

مرّت السنين، كانت القاعة الكبرى في الجامعة مليئة بمئات الحضور، فيما تصاعد التصفيق كهدير بحرٍ يضرب الشاطئ. وقفت سما على المنصّة، ترتدي ثوبًا داكن اللون، أنيقًا كأنه قطعة من الليل، وابتسامةً ثابتة على شفتيها تخفي ارتجاف قلبها. أمامها وُضع درع التفوّق الأكاديمي، انعكس بريقه على وجهها، فبدا للحظة كأنها محاطة بهالةٍ من نور.

مدّت يدها لتتسلّم الجائزة، لكنها شعرت أن أصابعها ترتعش بخفة، كأنها تخاف أن تفلت منها. وبينما كانت الكاميرات تومض بلا هوادة، تساءل شيءٌ خافت في أعماقها: «هل هذا هو النجاح الحقيقي؟»

لكن السؤال ما لبث أن تلاشى حين انحنى صوت مألوف على أذنها، ناعمًا، مُغرِيًا:

"انظري إليهم... كلّ هذه الوجوه شاخصة نحوكِ. ألم تري الحسد يشتعل في عيون زملائك؟ هؤلاء لا يحبونك، إنهم يهابونك، ويهابون علوّك. وهذا هو المجد، أن تكوني فوقهم جميعًا."

ابتسمت سَما، ورفعت رأسها أكثر، بينما ارتفعت موجة جديدة من التصفيق.

مرّت الشهور، وسَما تمشي بخطوات ثابتة نحو قمّة أخرى.

حصلت على منحة دراسية إلى واحدة من أرقى الجامعات، وحين وطأت قدماها الحرم الجامعي الجديد، أحاط بها الزهو من كل صوب. مكتبات ضخمة، محاضرات مزدحمة، أساتذة مرموقون. كانت تتقدم دائمًا الصفوف الأولى، تحمل كتبها كأنها تيجان لا أثقال، وتجيب بثقة تثير إعجاب البعض، وغيظ البعض الآخر.

وفي إحدى الأمسيات، دُعيت إلى حفلة كبرى في فندق فاخر.

أضواء الكاميرات، الموسيقى الناعمة، وضحكات المشاهير التي تملأ المكان. دخلت سَما بخطوات بطيئة، كأنها ملكة تسير في موكبها. التفّ حولها طلاب وأساتذة ورجال أعمال، يتحدثون إليها، يطلبون صورة معها. رفعت كأس العصير في يدها، وتألقت ابتسامتها أمام عدسات الهواتف.

لكن في زاوية القاعة، وسط الضجيج، أتاها ذلك الشعور بالوحدة مجددًا، تغرس أنيابها في قلبها. كان الضحك من حولها صاخبًا، فارغًا، يلمع بسطحية كالأضواء نفسها.

ترددت همسة من أعماقها:

«أفتقد الصداقة الحقيقية... أريد تلك اليد التي ستمتد نحوي بلا مصلحة حقًا، أو ابتسامة لا تحسب حساب المكانة.»

لم يتركها ذلك الصوت أو ذلك الظلام الذي دائمًا ما يكون في الأركان؛

"صداقة؟ أي وهم هذا؟ الصداقة لعبة الضعفاء. أما أنتِ، فقوتكِ أن تُحبيهم جميعًا من فوق، وتتركيهم يتمنّون رضاكِ.

القوة يا سَما هي الحقيقة الوحيدة."

أغمضت عينيها لحظة، وكأنها توازن بين الصوتين. لكن حين فتحتها، كان الجميع ينظر نحوها، يضحكون، يحيّونها، يحيطونها كما تحيط الكواكب بالشمس. ابتسمت من جديد، واستسلمت للتيار.

في ليلة أخرى، جلست سَما في غرفتها الواسعة، جدرانها مليئة بالصور التي جمعتها من حفلات ومنتديات ومؤتمرات.

كلها صور لها بابتسامة مثالية، تحيط بها الحشود. وضعت الهاتف جانبًا، وفتحت نافذتها. الهواء البارد لامس وجهها، لكنها لم تشعر بالانتعاش، بل بثقل غامض في صدرها. في الزجاج، انعكس وجهها كأنه مرآة مزدوجة: ابتسامة رنانة في الخارج، وملامح متعبة في الداخل. همست بصوت خافت:

"أنا لست سعيدة حقًا."

سقطت دمعة صغيرة من عينيها، لكنها أسرعت بمسحها،

كأنها تخاف أن يراها حتى ظلها. ثم أغلقت النافذة وأطفأت النور، بينما بقي صوته يتردد في أذنيها كترنيمة ليلية:

"إلى القمة... ولا شيء غير القمة."

الفصل الرابع: القفص

كانت الليالي في القصر تمتد بطيئة كالأبدية، يبتلعها الصمت كما لو أن الجدران الرخامية قد أقسمت أن تخنق كل همسة حياة. جلست سما في بهوها العظيم، وحولها تكدست المرايا اللامعة، الثريات المتدلية من السقف، التحف الذهبية واللوحات التي اقتنتها من مزادات بعيدة، لكن كل ذلك بدا أشبه بديكور فارغ داخل مسرح ميت. لم يكن ثمة أحد ليصفق، لم تكن ثمة عيون تنظر إليها بإعجاب. كانت وحدها، وحدها تمامًا.

مدّت يدها تلامس أطراف أريكة فرنسية عتيقة، كأنها تتحسس برودتها، ثم زفرت تنهيدة ثقيلة خرجت من أعماقها وقالت بصوت خافت، لكنه مشبع بالمرارة: "أنا محبوسة في قفص الكبرياء..."

ترددت كلماتها في أرجاء البهو كما لو أن القصر نفسه أعادها إليها، صدى أجوف يفضح خواء الروح. وفي إحدى زوايا المكان، تكوَّن الظل المعهود، يراقبها من بعيد، متكئًا على جدار وهمي، يبتسم ابتسامة ساخرة كمن يتلذذ بعذابها.

"هل هذا هو الثمن الذي دفعته لأكون عظيمة؟" سألت بصوت مرتجف، وقد بدا في نبرتها شيء من الندم الذي لم تعتد أن تسمح به.

اقترب، يخطو بخفة كأن الأرض ملك له، ثم همس في أذنها: "نعم... وهذا هو جمال الكبرياء."

ضحك بخفوت، ضحكة طويلة متقطعة، ثم أخذ يخطو حولها ببطء، كصياد يتفحص طريدته: "كل شيء لكِ... العروش، الأضواء، حتى هذه الجدران الشامخة. لكن... لماذا إذن يُخيَّل إليك أن المكان ضيق؟"

تجمدت، وكأن كلماته تنحت فراغًا داخل صدرها. أرادت أن تحتج، أن تقول يكفي...، لكن الكلمات عالقة.

واصل وهو يبتعد خطوة ويقترب بأخرى: "غريب... الأبواب هنا مفتوحة، ومع ذلك لا أحد يخرج.

أو ربما... لا يرغب."

نظر إليها نظرة جانبية، ساخرة، ولم يزد.

ارتعشت عيناها وهي تتأمل المرايا الكبيرة أمامها. لم ترَ انعكاسها كالمعتاد، بل رأت امرأة غريبة: عيناها واسعتان لكنهّما خاليتان، فمها مطبِق على صرخة غير قادرة على الخروج. شعرت للحظة أن المرايا تسخر منها، أنها هي القضبان التي تحاصرها من كل اتجاه.

في تلك اللحظة، حاولت أن تتذكر وجوه الناس الذين مرّوا في حياتها؛ زميلات الجامعة، الأصدقاء العابرون، حتى الخدم الذين

يمرّون من أمامها بخوف. لكن الوجوه اختلطت، انمحت، لم يبقَ في ذاكرتها سوى صدى التصفيق القديم والابتسامات المصطنعة.

اقتربت من إحدى النوافذ العالية المطلة على حديقة القصر.

كانت الحديقة مترفة، أشجارها مقصوصة بعناية، ورودها مصفوفة كجنود، نافورتها تتدفق بهدوء. لكنها لم ترَ فيها جمالًا، بل سجنًا آخر، أسواره من الزينة نفسها. حتى الهواء الذي دخل من النافذة بدا ثقيلًا.

ثم قالت: "هذا هو المصير الذي اخترته، فلا تتذمّري الآن. أردتِ العظمة، فخسرتِ البشر. أردتِ العلو، فدُفِنتِ في قمّة معزولة."

ابتسمت بمرارة، رفعت رأسها وكأنها ما زالت تحاول إقناع نفسها: "أنا الأفضل... الأفضل في كل شيء."

لكن الكلمات لم تعد تحمل القوة ذاتها. بدت أشبه بمحاولة بائسة لتذكير ذاتها بأسطورة آخذة في التفتت. ومع ذلك، صفق الظل ساخرًا، كمن يبارك اعتراف الأسيرة بمصيرها.

الفصل الخامس: الكفاح

في ليالٍ لاحقة، القصر أصبح سجنًا صامتًا حقًا، جدرانه العالية لا تردّد سوى صدى أنفاسها. كانت تنظر إلى السقف كما لو كان غطاء من حديد يضغط على صدرها، ويعيد إليها كل مساء شعور الاستسلام الذي وقّعت عليه من غير أن تدري.

لكن هذه الليلة لم يكن الصمت عاديًا. كان يخنقها، كأن شيئًا يضغط على حلقها من الداخل. مدّت يدها إلى الهاتف كمن يمد يده إلى طوق نجاة وسط بحر موحش. ترددت، وأحسّت للحظة أنها طفلة، ثم همست لنفسها: "لا بد أن أجرب... لا بد أن أفتح بابًا، ولو صغيرًا."

رنّ الخط طويلًا، ثم جاء صوت بارد، متعب: "من؟"

"أنا... سما."

لحظة صمت حادّة، كأن الطرف الآخر لم يتوقع الاسم. ثم ردّ بلا اكتراث: "آه... أنا مشغولة الآن." وانقطع الخط.

شهقت بلا صوت. أحسّت أن قلبها سقط في بئر.

ضحك الظل: "رأيتِ؟ لم يفتح لكِ الباب. لماذا تحاولين أصلًا؟ أنتِ سجينة هنا، سجينة في دمك، في اسمك، في قصر أبيك."

لكنها لم تستسلم. عناد يائس دفعها لتجربة رقم آخر. أصابعها ترتجف وهي تضغط. جاء صوت متهكّم: "سما؟! بعد كل هذا الوقت؟"

"اشتقت... أردت أن أراكِ."

ضحكة قصيرة، باردة: "نحن من عالمين مختلفين الآن كما تدرين. وداعًا... يا ملكة."

وضعت سما الهاتف ببطء، كأنها تضع جثة بين يديها.

شعرت بالخذلان يتسلل إلى أعماقها، ينهش قلبها مثل برد شديد. تقدّمت نحو المرآة الكبيرة، رأت انعكاسها يرتعش، وعيناها تترقرقان بالدمع. لكن فجأة، في عمق المرآة، برز وجهه للمرة الأولى، الكبرياء، مبتسمًا ببرود: "ألم أقل لكِ؟ أنتِ لا تستطيعين الهروب مني. أنا جزء منكِ، ولستُ ضيفًا يرحل. هم يرفضونك لأنني فيكِ، لأنكِ أكبر من أن تُقبَلي في حضنهم الضيق."

صرخت: "لا... لا أريدك! أريد أن أكون مثلهم، أن أعيش بينهم بلا أقنعة!"

فضحك الكبرياء ضحكة طويلة، عميقة، ترددت أصداؤها في جدران القصر: "بلا أقنعة؟! أنتِ القناع نفسه. إن نزعوني منكِ، فلن يبقى شيء سوى فراغ."

سقطت سما على الأرض، والستائر خلفها ترفرف بقوة مع نسمة الليل، كأنها تصفق لهذا السجان الذي لا يمكن تحطيمه. حاولت أن تزحف نحو النافذة، أن تمد يدها إلى الهواء الطلق... لكن صوت الكبرياء سحبها من الداخل كقيد من حديد: "عودي إلى مكانك... القفص من ذهب، وأنتِ مخلوقة له."

أغمضت عينيها، والدموع تبلل وجهها، وهي تتمتم: "سأجد طريقًا... لا بد أن هناك طريقًا..."

لكن في أعماقها، كانت تعرف أن كل طريق تقف أمامه تلك الضحكة الساخرة، ضحكة الكبرياء، الذي يزداد قوة كلما حاولت الانفلات منه.

الفصل السادس: المرآة تتشقق

القمر تسلل عبر نافذة طويلة، ضوءه الفضي سقط على وجهها الشاحب، كاشفًا.

في تلك اللحظة، وكأن الجنون قفز إلى عقلها، اندفعت سما نحو المرآة بكل قوتها. قبضت على كأس البلور ورمته عليها. الزجاج تحطّم إلى مئات القطع المتناثرة، والانعكاس تشقّق كجسد يئنّ. صرخة حادّة انطلقت من أعماقها، صرخة مزجت بين الألم والتمرّد.

لكن العجيب أن شظايا المرآة لم تخلُ من صورته؛ على العكس، في كل قطعة صغيرة من الزجاج كان وجه الكبرياء يبتسم، يتضاعف، يتكاثر، يحيط بها من كل الجهات. ارتجفت وهي تحدّق في الأرض المليئة بالشظايا، وصوت الظلّ يدوّي من كل مكان: "أتحسبين أنكِ ستتخلصين مني بكسر المرآة؟ لقد صرتُ دمك ولحمك. أنا موجود في كل نفس تتنفسينه، في كل خطوة تخطينها. إن هربتِ مني، ستذوبين في العدم."

سقطت سما على ركبتيها، يداها تغطيان وجهها، وصرخت:

أرجوك، اتركني... يكفي!

وفجأة، فُتح الباب بقوة، وظهرت أمها من العدم، وقد جمدت في مكانها، عيناها تتسعان رعبًا. رأت ابنتها جاثية على الأرض، محاطة

بالشظايا، تتكلم مع نفسها بصوت مرتعش، وتصرخ كأنها تواجه شبحًا. ارتبكت، وتراجعت خطوة إلى الوراء، ثم أغلقت الباب بسرعة، وهي تهمس لنفسها:

لقد أصابها الجنون...

أما سما، فلم تدرك شيئًا، كانت غارقة في عالمها، تسقط أكثر فأكثر في هوة نفسها. ضحكة الكبرياء ملأت القصر بأسره، ضحكة لم تعد تأتي من المرآة وحدها، بل من جدران الغرفة، من الهواء، من قلبها هي ذاتها.

حينها، همست بصوت مكسور:

ربما كنتَ محقًا... ربما بلاك أنا لا شيء... وفي اللحظة نفسها، ارتسمت على فم الكبرياء ابتسامة واسعة، كأنها انتصار أبدي.

اقتربت من النافذة الكبيرة، تلك النافذة التي كانت تطل على الحديقة الواسعة، حيث الأشجار تتمايل في صمت جنائزي، وحيث الليل يمد ذراعيه كأنهما يدان تنتظران فريسة. مدت يدها نحو المقبض الذهبي، وفتحت النافذة ببطء، فانفجرت ريح باردة دفعة واحدة إلى الداخل، فأطفأت بعض الشموع الموزعة على الطاولات. ارتجف القصر كله، كأنه يدرك ما سيحدث.

صرخ الكبرياء، صوته هذه المرة متشنج، متوسل، غاضب في آن:

"لا! لا تفعلي هذا! أرجوكِ يا سما، لا تتركي عرشك.

تذكري، أنتِ الملكة الوحيدة، أنتِ التي لا تُقهر! إذا قفزتِ، ستمحى كل قصتك، ستذوبين في العدم، ولن يبقى سوى صمت بارد يضحك عليك."

لكنها، لأول مرة منذ زمن بعيد، رفعت رأسها نحوه بعينين دامعتين، وقالت بصوت مكسور لكنه حاسم:

"لقد عشتُ كملكة... لكن أي ملكة هذه التي لا يزورها أحد، ولا يحبها أحد، ولا يذكرها أحد؟ ما قيمة العرش إذا كان القفص أكبر منه؟ حان أوان أن أخلع هذا التاج وأمشي خفيفةً بلا قيود."

ارتجف الكبرياء، لم يعد ذاك الصوت الجبار المتعال، بل صار ككلب جريح، يصرخ، يلهث، يحاول التمسك بأي شيء:

"أنا من صنعك! أنا من رفعك فوق الجميع! من غيري يمنحك القوة؟ أنتِ طعامي... وأنا طعامك!"

ابتسمت ابتسامة قصيرة، باكية، كأنها تعترف وتكذب في اللحظة ذاتها: "ربما أكون طعامك وأنت طعامي... لكن أن نتلهم بعضنا بعضًا ليس حياة، بل سجن من الجوع الأبدي."

خطت إلى حافة النافذة. قدماها العاريتان لامستا البرد المعدني للحافة. الريح صفعت شعرها الطويل، فتناثر كأمواج سوداء في الهواء. السماء فوقها بدت أوسع من أي وقت مضى، والحديقة تحتها تحولت إلى هاوية لا نهاية لها.

في تلك اللحظة، بدا الزمن يتباطأ. قلبها يدق ببطء مريع، كأنه ناقوس كنيسة يُقرع لوداع أخير.

النجوم بعيدة، وحدها الريح تعوي.

الكبرياء يصرخ بجنون، صوته يهتز كأن جدران القصر نفسها تبكي معه:

"لا تفعلي! لا أستطيع العيش بدونك! أنتِ مصدر قوتي! أنتِ حياتي! أنا... أنا..."

لكن صوته بدأ يخفت، كأنه يذوب في الفضاء.

قالت سما، وهي تغمض عينيها وتفتح ذراعيها للريح: "سأكون حرة... حتى لو كان ثمن حريتي حياتي."

قفزت. جسدها يتهاوى ببطء، ثوبها الأبيض يتطاير كجناحين مهشّمين، عيناها نصف مغمضتين كمن يستقبل النوم، والريح تعوي من حولها كجوقة جنائزية. في سقوطها شعرت أن كل الأثقال التي كبّلتها قد تبعثرت، كل الجدران التي طوقتها قد تلاشت.

لأول مرة منذ سنين، لم تسمع صوت الكبرياء، بل سمعت فقط خفقان قلبها يتلاشى شيئًا فشيئًا.

وفي الأعالي، في صدى الريح، دوى صوت الكبرياء صارخًا، متلاشيًا، لكنه لم يجد من يسمعه.

اختفى صوته في الفضاء، كما يختفي الدخان في العدم.

أما القصر، فقد بقي واقفًا، صامتًا، نوافذه مفتوحة على ليل لا ينتهي، كأنه يعلن أن كل مملكة من دون بشر، وكل عرش بلا قلب، ليس سوى قبر ذهبي ينتظر سيدًا جديدًا.

اليوم السابع: اليأس

في اليوم السابع، لم يبقَ للإنسان سوى اليأس.

الغضب يشتعل كالنار، والشهوة تفتك كسمّ، والكبرياء يبتلع صاحبه، لكن اليأس... آه، اليأس هو المقبرة التي تمشي على قدمين. من وقع في شركه لا يحتاج سيفًا ولا عدوًا ليقتله؛ يكفي أن يستيقظ صباحًا، فيجد أن قلبه صار قبرًا، وأن العالم كله قد تآمر على أن يتركه وحيدًا في عتمته.

وها أنا ذا، أفتح أمامكم حكاية رجل كان يظن أنه يحارب من أجل العدالة، حتى اكتشف أن اليأس كان أشرس من كل رصاصة وُجّهت إلى صدره."

الفصل الأول: الفوضى

في قلب مدينة متآكلة، تآكلت قوانينها قبل أن تتآكل جدرانها، عاش رائد.

شاب طموح، حلم منذ صغره أن يصير ضابط شرطة، أن يحمل شارةً يظنها سحرية، تردع المجرمين وتعيد الحق إلى أصحابه. كان يتحدث في طفولته مع أصدقائه عن العدالة كما يتحدث الأطفال عن الأبطال الخارقين، وكانت ضحكاتهم بريئة، ساخرة، لكنها مُحمَّلة ببراءة الأمل.

لكن الآن... أي عدالة؟

الشوارع صارت غابة للرصاص.

الدم يسيل في الأزقة كما يسيل الماء من أنابيب مكسورة.

العصابات تحكم أكثر من الدولة، ورجال الشرطة أنفسهم صاروا جزءًا من اللعبة: بعضهم يبيع صمته برشوة رخيصة، وبعضهم يغلق عينيه كي يعيش يومًا آخر.

رائد... لم يكن مثلهم.

كل صباح ينهض من فراشه كمن يسير إلى معركة يعرف مسبقًا أنه سيُهزم فيها. يلبس بزته الرسمية، ينظر في المرآة، فلا يرى وجهه، بل يرى سؤالًا كبيرًا: لماذا ما زلت تحاول؟

كان يسير بين زملائه في القسم كغريب. هم يتبادلون النكات، يقسمون الغنائم، يخططون لحفلاتهم، بينما هو يتأمل الملفات المكدسة أمامه، ملفات جرائم لا أحد ينوي التحقيق فيها.

كل طلقة يسمعها في الشارع كانت تخترق قلبه قبل أن تخترق جدارًا.

كل جثة يراها ملقاة في زقاق كانت تذكره بضحكة صديقه القديم من الطفولة، الذي كان يؤمن معه أن العدالة قادمة لا محالة.

ورغم ذلك، ظل يقاوم.

يمشي بخطوات مثقلة، كأن الأرض كلها تعانده، لكن داخله قبس صغير لم ينطفئ بعد. ومع ذلك... كان يدرك في أعماقه أن القبسَ وحده لا يكفي لإضاءة مدينة غرقت في ظلام الفوضى.

الفصل الثاني: الانهيار

كان الزمن يثقل على قلب رائد كما لو أنه حجر يضغط صدره مع كل نفس يتنفسه. لم يكن اليوم يختلف عن الأمس، لكن شيئًا ما في داخله كان يتآكل ببطء، كخشب قديم ينخره السوس من الداخل حتى ينهار فجأة دون إنذار. لقد صار يرى الموت في عيون رفاقه قبل أن يخطفهم الرصاص، ويرى العبث في القوانين التي تُكتب بحروف ذهبية على الورق، بينما تُداس بالأقدام في الشوارع المظلمة.

شهد بعينيه كيف يُقتل زملاؤه واحدًا تلو الآخر. دماؤهم لم تجف بعد على الأرصفة، بينما القتلة يُفرج عنهم في اليوم ذاته، يخرجون من الأبواب الخلفية للعدالة، ساخرين، كما لو كانوا يقولون له: "ها نحن أحرار، أما أنت فمقيّد بأصفاد القانون."

وفي تلك الليلة المشؤومة، حين كان يتجول وحده في شوارع المدينة التي ابتلعت ضوءها، انغرز الرصاص في أذنه كصفعة قاسية. التفت مذعورًا، فرأى المشهد الذي ظل محفورًا في ذاكرته كجمر لا ينطفئ: رجل يُطلق النار بدم بارد على امرأة وطفلها الصغير.

لم يكن الرصاص هو الذي قتلهما فقط، بل الصمت الذي تلا الرصاص، الصمت الذي بدا أثقل من أي انفجار. رأى كيف

انطفأت الحياة في عيونهما دفعة واحدة، كما تُطفأ شمعتان في غرفة باردة. شعر أن العالم كله سقط على كتفيه، أن وزن آلاف الجثث تكدس فجأة فوق صدره. أراد أن يصرخ، أن يركض، أن يفعل أي شيء، لكن قدميه تجمدتا في مكانهما، كأن الأرض ابتلعته ليغدو شاهدًا أخرس على مذبحة لا تُغتفر.

وتردد في داخله صوت متكسر: "ما الفائدة من كوني ضابط شرطة إذا كنت عاجزًا عن حماية الأبرياء؟" كان صوته ضعيفًا، أقرب إلى نحيب داخلي منه إلى سؤال. لكنه، في تلك اللحظة، سمع صوتًا آخر، لم يأتِ من الخارج فحسب، بل من داخله أيضًا.

ظهر رجل غريب في العتمة، ملامحه غامضة، كأنه ظل أكثر منه جسدًا. عيناه لم تُرَ بوضوح، لكن رائدًا شعر أنهما تخترقانه كما تخترق السكاكين اللحم الرخو. قال الرجل بصوت بارد، بطيء، كأن كلماته تُقطّر سمًّا:

"لماذا تحاول أن تكون بطلًا في عالم لا يهتم؟ ألم تتعب من الكفاح؟ هنا، لا مكان للعدالة. كل ما عليك هو أن تستسلم، أن تنحني... وستجد السلام."

كانت الكلمات كملح يوضع على جرح مفتوح. أحس رائد أن الرجل لم يكن إلا صدى لصوت يعرفه منذ زمن، الصوت الذي طالما حاول أن يُسكته: صوت اليأس المتربص، الكامن في أعماقه.

بدأت الصور تتداخل أمام عينيه: وجوه زملائه المقتولين، دموع النساء اللواتي استغثن به من قبل، ضحكات المجرمين وهم يخرجون من أبواب السجون، وها هي الآن جثة المرأة والطفل تتمددان أمامه بلا حول. كل ذلك انقض عليه كطوفان لا يمكن إيقافه.

هل أنا رجل؟ أم أني مجرد قشرة فارغة؟

هل القانون الذي أقسمت عليه إلا وهم؟

هل كنت طوال الوقت أقاتل طواحين الهواء؟

بدا له أن صوته الداخلي يتناوب مع صوت الرجل الغريب، حتى لم يعد يميز أيهما منه وأيهما ليس منه. هل كان الغريب واقفًا حقًا؟ أم أنه انعكاس نفسه الممزقة وقد تجسد أمامه؟

ارتجفت شفتاه وهو يحاول أن ينطق: "أنا... أنا لست بطلًا... لم أعد قادرًا..."

لكن الكلمات ماتت في حلقه، وانهار داخله قبل أن ينهار جسده.

ترك الجثتين خلفه وسار متثاقلًا، كأنه يحمل تابوتًا على كتفيه، تابوتًا بدا في النهاية فارغًا، لأنه لم يكن يشيّع الضحايا، بل يشيّع نفسه. كانت المدينة صامتة، والظلال أطول من أي وقت مضى، وكأن العالم كله أعلن وفاة العدالة في تلك الليلة، وتركه وحيدًا ليرثي نفسه.

الفصل الثالث: الفخ

كان الصباح التالي أكثر صمتًا من أن يُحتمل. لم تكن الشمس إلا قرصًا باهتًا خلف سحب رمادية، وكأن المدينة نفسها تستحي من أن تكشف وجهها. جلس رائد في مكتبه، الأوراق مبعثرة، رائحة البارود ما زالت عالقة في ملابسه كذكرى لا تريد الرحيل.

دخل رجل بملامح باردة، بدلة أنيقة تُخفي قسوة وجهه أكثر مما تزينه. كان معروفًا في الشوارع باسم "الخال"، أحد الوجوه الثقيلة التي تُحرّك الخيوط من وراء الظلام. جلس بلا دعوة، ابتسم ببطء، وقال بصوت هادئ كمن يعرف ما يريد: "لماذا تُتعب نفسك يا حضرة الضابط؟ انظر حولك... كل من تحاول إنقاذهم قد باعوا أنفسهم منذ زمن. انضم إلينا.

ستكون حياتك أفضل. لا مزيد من الدماء ولا الركض وراء أوهام العدالة. فقط مال... وقوة... ونفوذ يجعلك فوق الجميع."

تجمد رائد. شعر بصفعة مخفية تخترق روحه. كان العرض وقحًا، صريحًا، لكنه مغر، كأن الكلمات وزنت بميزان يعرف تمامًا موضع الجرح. في اللحظة الأولى، رفع رأسه بعناد: "أنا لست مثلكم. لم أدخل الشرطة لأبيع نفسي."

ابتسم الخال ابتسامة قصيرة تنضح بالثقة: "كلنا قلنا ذلك في البداية. لكن الزمن... آه يا زمن... هو الذي يعلّم الإنسان أن

المبادئ مجرد أحجار ثقيلة. دعها تسقط، وسترى كم يصبح الطريق خفيفًا."

وخرج الرجل، تاركًا وراءه رائحة تبغ ثقيلة، كأنها وُشمت في الجدران. بقي رائد وحده، يضحك ضحكة قصيرة مكسورة، كمن يحاول طرد فكرة لكنه في العمق يحتضنها.

"مستحيل! كيف أفكر بهذا؟ أنا من يقاتلهم... لكن لماذا؟ هل حققت شيئًا؟ زملائي قُتلوا، المجرمون يمرحون، والمدينة تغرق. لمن أُضحّي؟ لمن أعيش ككلب يلهث وراء أوهام؟"

مع مرور الأيام، صار العرض شبحًا يلاحقه في كل شارع، في كل نظرة. رأى زملاءه القدامى وقد اختاروا الطريق الأسهل، سيارات جديدة، بيوتًا فاخرة، وجوهًا سمينة راضية.

كلما التقاهم، شعر أن خيوط الفخ تلتف حول عنقه ببطء.

وفي إحدى الليالي، جلس وحده في شقته الضيقة. سمع صوته الداخلي أشد وضوحًا من أي وقت مضى: "أنت لا شيء هنا... مجرد ترس مكسور في آلة صدئة.

أما هناك... بينهم... ستكون سيدًا، ستكون قوة يخشاها الجميع."

أجاب نفسه بغضب يائس: "لكنني سأكون خائنًا!"

"خائن؟ لمن؟ لمن ماتوا؟ لمن تركوك وحيدًا؟ أم لشعارات لا تُسمن ولا تُغني من جوع؟"

وضع رأسه بين كفيه، والعرق يتصبب. أحس أنه على وشك الانهيار مرة أخرى. لكن هذه المرة لم يكن الانهيار دمعة أو صرخة... بل رغبة خفية في مدّ اليد نحو الفخ، فقط ليرتاح.

عند منتصف الليل، رن الهاتف. رقم مجهول. تردد لحظة، ثم أجاب. جاءه الصوت الهادئ: "فكّرت؟"

"... ربما. لكن مجرد لقاء آخر... فقط لأسمع."

كان يعلم في أعماقه أن "مجرد لقاء" ليس إلا الخطوة الأولى في هاوية بلا قاع. ومع ذلك، لم يُغلق الهاتف. ابتسم ابتسامة باهتة، كمن يعرف أنه دخل الفخ بنفسه.

الفصل الرابع: السقوط في الهاوية

في الليلة التالية، جلس رائد أمام المكتب الخشبي الصغير في شقته، الأوراق النقدية مرمية فوق الطاولة، كأفاعٍ خضراء تلمع تحت ضوء خافت. مد يده إليها ثم سحبها سريعًا، كما لو أنها تحرق جلده.

رن الهاتف. كان صوته الخافت يتردد في الغرفة كجرس جنازة. رفع السماعة، فجاءه صوت "الخال" ناعمًا، مبللًا ببرودة حديد: «خطوتك الأولى بسيطة... توقيع على ورقة، كلمة تمحى من تقرير، رقم لا يسجل. وسترى كم يصبح العيش هادئًا حين تكف عن محاربة الوهم.»

أطبق رائد جفونه بقوة، كمن يغلق بابًا في داخله. ثم مد يده إلى القلم. اللحظة كانت قصيرة، لكنها قصمت ظهر سنوات من الصمود. حين وضع توقيعه، لم يسمع سوى صرير القلم كأنه إعلان موت.

الأيام التالية مرت كالكابوس.

في النهار، يرتدي زيه الرسمي، يخرج إلى الشوارع، يصيح بالجنود، ويكتب التقارير بصرامة. كان الناس يرونه ضابطًا حازمًا، ممسكًا بزمام النظام.

لكن مع حلول الليل، يخلع بدلته النظيفة ويجلس على طاولة أخرى، حيث يجلس رجال العصابة، سجائرهم مشتعلة وأصابعهم

تلعب بأوراق المال. أصبح يستلم الرشاوى بيد مرتجفة أولًا، ثم ثابتة لاحقًا، حتى صار الأمر عادة كالماء والهواء.

كل ورقة نقدية كانت ثقلًا على صدره. كان يشعر بها تكدس داخله، كأحجار تبني جدارًا بينه وبين ماضيه.

صوت داخلي يجلده كلما عاد متأخرًا: "أتذكر؟ كنت تحلم بالعدالة. كنت تصرخ في وجه الفاسدين. والآن، صرت واحدًا منهم."

كان يرد على نفسه بعصبية: "أنا لم أختر... أنا فقط أعيش. لا أحد يحارب المدينة كلها."

لكن صمته كان اعترافًا أكثر من دفاع.

جاءت لحظة لم يستطع نسيانها.

في أحد الاجتماعات، وُضع أمامه ملف ضابط قديم عرفه في الكلية. كان نزيهًا، شريفًا، لم يقبل يومًا أن يغض الطرف.

قال أحدهم وهو يمرر الملف بابتسامة باردة: «هذا الرجل يكثر من الأسئلة. تقريرك سيحدد مصيره.»

فتح رائد الملف وقرأ اسمه. أصابعه تجمدت، وعيناه صارتا كحجر.

كان يعلم أن مجرد كلمة في التقرير ستجعله يختفي للأبد.

لم ينطق. ظل صامتًا، والآخرون يضحكون ويثرثرون. كتب جملة صغيرة بيد مرتجفة، ثم أغلق الملف.

بعد أيام، سمع أن الرجل "نقل" إلى مكان مجهول. لم يُرَ بعد ذلك قط.

في بيته، جلس رائد وحيدًا. النقود أمامه كجثث صامتة، بلا قيمة ولا رائحة سوى العفن.

أخذ يضحك فجأة، ضحكة مجنونة، ثم تحولت إلى شهقات بكاء مكتوم.

كان يشعر أنه صار جسدًا بلا روح، قناعًا بلا ملامح.

رفع رأسه إلى المرآة، فرأى عينيه كهاويتين سوداويتين.

قال لنفسه بصوت مبحوح: "أنا لست ضابطًا... ولست إنسانًا. أنا قبر يمشي على قدمين."

هكذا سقط رائد، ولم يعد السقوط مجرد فكرة، بل واقعًا يعيشه كل يوم.

الفصل الخامس: النهاية

في ليلة حالكة، كانت أضواء الشوارع متناثرة على الأرصفة المبتلة، كما لو كانت دموع المدينة تتساقط بلا توقف. تسلل رائد عبر الأزقة الضيقة، قلبه يثقل كصخرة، ويداه ترتجفان تحت ضغط البندقية التي يحملها. لم يكن سعيدًا بما يفعل، لكنه عرف أن أي تراجع سيكلفه حياته، أو حياته الأخلاقية، أو ربما كليهما.

كانت المهمة بسيطة على الورق: نقل صفقة، تسليمها لشخص مجهول، والبقاء بعيدًا عن أعين الشرطة الرسمية، أو أي من العصابات المنافسة. لكنه شعر بثقل كل خطوة، بثقل كل اختيار اتخذه منذ انضمامه إلى هذا العالم المظلم. في داخله كان صراع طويل: بين ضابط الشرف الذي كان يحلم أن يكونه منذ الصغر، وبين الرجل الذي أصبح جزءًا من الفوضى.

كل شيء حوله كان يذكره بالفوضى: صراخ بعيد، أصوات سيارات تمر بسرعة، مرايا مطلية بالغبار على الجدران القديمة تعكس ظله المهزوز. حاول أن يركز، أن يتنفس ببطء، أن يتظاهر بالهدوء. لكن كل حركة كانت تذكره بالخيانة، بالخطر، باليأس الذي تسلل إلى قلبه منذ أيام طويلة.

وبينما كان يقترب من موقع التسليم، لمح ضوءًا خافتًا يلمع على قطعة حديدية، وظن للحظة أنه مجرد انعكاس، لكنه شعر

بقشعريرة تسري في جسده. توقف، ألقى نظرة حوله، وأدرك أن الطريق ليس آمنًا. هناك ظل يراقبه، وأصوات خطوات خافتة تقترب من كل جانب، وزوايا الظلام تخبئ ما لا يريد أن يراه.

تقدم بحذر، وكل خطوة كانت كأنه يعبر حافة حفرة بلا قاع.

أفكاره تعج بالصور: زملاؤه الذين سقطوا، أولئك الذين رفضوا أن يبيعوا ضمائرهم، وجوه الأبرياء الذين لم يستطع حمايتهم. شعور بالخذلان يغمره، كأنه يغرق في بحر من الذنوب، بحر لا مفر منه.

اقترب من مكان الصفقة، حيث وقف رجل العصابة، وجهه غير واضح في ضوء مصباح واحد، لكن الرائحة القوية للكحول والدخان كانت كافية لتأكيد أنه على خطأ كبير. أشار إليه الرجل بهدوء، وكأنهما في لعبة طويلة، لعبة لا يعرف فيها أحد من سيهزم الآخر.

رائد مدّ يده لتسليم الحقيبة، لكنه تردد للحظة، نظر حوله، كل الأصوات، كل الظلال، كل الصمت الموحش أصبح صديقًا لليأس الذي يشعر به. ثم فجأة، اختلط صوت خطوات سريعة بأصوات صراخ غير متوقع. أصيب قلبه بموجة من القلق، أحس أن الفخ قد انغلق عليه، وكأن كل خياراته السابقة لم تكن سوى مسرحية هزيلة لمصيره المحتوم.

وفي اللحظة التالية، بينما كان يحاول التراجع خطوة إلى الوراء، سمع صافرة عالية. التفت بسرعة، وعيناه تتسعان، لكنه لم يكن قادرًا على الحركة بسرعة كافية...

ووقع الطلق.

وقعت الطلقة، ومرّت عبر الهواء كوحش لا يرى، لتصطدم بجسد رائد. صرخ في داخله صوت واحد، عال وغاضب، صوت ضابط الشرف، صوت الفتى الذي حلم بالعدالة منذ الصغر، لكنه كان الآن مكتومًا تحت وطأة الألم والفوضى.

سقط على الأرض، كل شيء حوله أصبح مشوشًا: الدم على الرصيف البارد، الوجوه الملتفة حوله، صرخات زملائه الذين كانوا يهرعون في كل اتجاه. شمّ رائحة البارود، رائحة الخيانة الممتدة في أرجاء المكان، كل شيء كان يذكره بالفشل، بالخيبة، باليأس الذي تراكم في قلبه منذ أن اختار الطريق الأسهل.

حاول النهوض، لكن جسده رفض، كأنه صار عبئًا ثقيلًا يرمز لكل قراراته الخاطئة. كان يسمع أصوات الصراخ، أصوات إطلاق النار، لكنه لم يعد يعرف أي صوت ينتمي إليه، وأي صوت مجرد صدى في غرفة فارغة من العدالة.

نظر إلى زملائه الذين كانوا يقاتلون حوله، ورأى الدم يغطي وجوههم، ووجوه العصابات في حالة غضب وانتصار مؤقت. كل

ما رآه كان انعكاسًا لما أصبح عليه: ضابطًا ضائعًا بين القوانين، بين الأخلاق، بين الخيانة.

ابتسم ابتسامة مرة، مزجت بين الألم والوعي الأخير: لقد حاول، لقد قاوم، لكنه أدرك أنه كان يقف على حافة هاوية لا مفرّ منها. قلبه ينبض ببطء، عقله يغرق في أفكار متشابكة عن العدالة، عن الشرف، عن حياة لم تعطَ له.

مع كل نفس يلتقطه بصعوبة، شعر بشيء يتركه. لم يكن مجرد دماء تسيل من جرحه، بل شعور بالحياة نفسها تتلاشى، واحدة واحدة. وأخيرًا، حين أغمض عينيه، لم ير إلا مشاهد متراكمة: زملاء سقطوا، الأبرياء الذين لم يستطع حمايتهم، والمدينة التي لا تعرف الرحمة، المدينة التي قضى حياته يحاول أن يغيرها.

في تلك اللحظة، كان رائد قد أصبح مجرد ظل لنفسه، ظل يختفي بين الفوضى التي أحاطت به منذ البداية.

وهنا اقترب منه العجوز الذي قابله في البداية، مبتسما بسخرية:

"مرحبًا بك في عالم الواقع. يبدو أنك أدركت أخيرًا أن كل ما فعلته كان عبثًا. كيف تشعر الآن؟"

بصوت يتقطع، قال رائد: "شعور لا يطاق... لكنني لم أكن أريد أن أنتهي هكذا. لقد حاولت... حاولت أن أحارب."

"تقاتل من أجل ماذا؟ قانون ميت؟ عدالة لم تعد موجودة؟ أنت ببساطة جزء من نظام فاسد. وها أنت الآن ملقى على الأرض، كأي ضحية أخرى. هل تستحق المعاناة التي عشتها؟"

أجاب رائد بصوت منخفض: "أعتقد أنني كنت أؤمن بأن هناك شيئا أكبر من ذلك. لكن... يبدو أنني كنت مخطئًا."

"مخطئ؟ لا، كنت محقًا في البداية. لكنك اخترت الطريق الأسهل. سقطت في فخ، ونسيت من كنت. هل تعتقد أن هناك نصرًا في الخيانة؟"

"لقد كانت خيانتي هي الخيار الوحيد، لم أر أملًا في ذلك الوقت."

"الأمل؟ هل تعتقد أن الأمل هو ما يحرك العالم؟ الأمل مجرد وهم. كضوء في نفق مظلم يتضح أنه مسدود، وأن الضوء يأتي من حشرة مضيئة دخلت النفق عن طريق الخطأ، وعندما تموت تجد نفسك في ظلام أعمق."

"لكن... بدون أمل، فقد مات الجميع بالفعل؟ هذا هو السؤال الأهم."

"في الواقع، الجميع محاصرون في دوائر من الفوضى. لكن، في النهاية، هل هناك فائدة من هذا السير؟"

"إذا كان كل شيء عبثيًا كما تقول، لماذا نعيش إذن؟"

"لتكون جزءًا من هذه الفوضى، لنكون ضحاياها. نحن نكتب قصصنا، لكننا نعلم في النهاية أن القصة ستنتهي، وأننا لن نكون سوى ذكريات." يبتسم رائد بسخرية: "إذن، تقول أن يكون اليأس هو الحقيقة الوحيدة؟"

"بالضبط. في عالم مليء بالأكاذيب، اليأس هو الحقيقة الوحيدة التي يمكنك الاعتماد عليها." بصوت متقطع:

"لكن... سيأتي دائمًا من يقاتل من أجل ما هو صحيح؟"

"المقاومة جميلة، لكنها مؤلمة. حتى الأقوياء يسقطون، وعندما يسقطون، يكتشفون أن ما كانوا يقاتلون من أجله لم يكن سوى سراب."

بينما كانت الكلمات تتردد في الهواء، بدأ رائد يشعر بأن روحه تبتعد عن جسده. استمر في النظر إلى الظلام، حيث كانت ضحكة اليأس تتردد كأصداء في عتمة المدينة. "هل هناك حقًا معنى في عالم بلا قانون؟"

ومع ذلك، تلاشت الكلمات في الظلام، بينما سقطت آخر أنفاس رائد، وترك خلفه سؤالًا بلا إجابة.....

اليوم الثامن: الطامة

وعند انتهائه من اليوم السابع، شرد العجوز لوهلة وبدأ ينتحب، حتى خفت من صوت نحيبه، كأن قلبه ينهار داخليًا قبل أن تهتز شفتيه. بدأت عينه تبكي دمًا، دموع لا تشبه دماء الجسد، بل دماء الروح الممزقة، دماء تجسد سنوات من الألم والخذلان والخطايا التي تراكمت في أعماقه.

لم يكن هناك أحد يشاهد هذا الانكسار إلا نفسه، فالعالم الخارجي لم يعد يهمه، وكل شيء من حوله صار ضبابًا باهتًا. جلس راشد، العجوز الذي عانى طوال حياته من عبء الحب المظلم، على كرسيه الخشبي القديم، كأنه يحمل على ظهره كل الخيانات التي عرفها، كل العذابات التي عاشها، وكل الحب الذي ضاع منه.

كانت الغرفة صامتة، ثقيلة، محاطة بأشباح الماضي، وكل زاوية منها كانت تهمس له بما فاته، بما خسره، بما لم يكن يستطيع إصلاحه. سامر، ابن شقيقه، جلس أمامه، ينظر إليه بعينين مفتوحتين على اتساع الحيرة والشباب، لكنه لم يتجرأ على مقاطعة ذلك الانهيار.

راشد أخيرًا رفع رأسه، وعيناه الغارقتان في دموعه تثقل كل ما حوله، وقال بصوت مكسور، يخرج من أعماق العمر نفسه:

"اليوم الثامن... اليوم الذي سيحاسبنا جميعًا. اليوم الذي سيكشف الحب عن وجهه الحقيقي..."

صمت طويل ملأ الغرفة، صمت يزن كل الخطايا السابقة، صمت يسبق الطوفان، صمت يجعل قلب سامر يخفق بلا وعي.

اليوم الثامن سيأتي محملًا بالخلاص.

تحدث الجميع عن الخطايا، وكان الجميع يعرف أن اليوم الثامن سيكون حاسمًا.

مرت الأيام وتوالت الخطايا، إلى أن وصلنا الآن إلى اليوم الثامن. اجتمعت المدينة كلها في الساحة الكبرى، رجالًا ونساءً، شيوخًا وأطفالًا. لم يجرؤ أحد على البقاء في منزله؛ الخوف كان ينهش الصدور، والخطر بدا وكأنه سينبثق من داخل كل واحد منهم.

كانت هناك رائحة غريبة تملأ المكان، مزيج من دخان وشيء آخر لم يستطع أحد إدراكه، وكأن الهواء نفسه ينذرهم بعاصفة قادمة.

فجأة، شقّ صوت فتى السكون. كان اسمه راشد، عيناه تشتعلان بجنون، وصوته يعلو مع كل كلمة: "أيها الناس! هل تعرفون أن الحب هو الجذر الذي أنبت كل الخطايا السبع المميتة؟!"

ارتبك الجمع، وتململ الناس في الساحة. همهمات انطلقت كأمواج صغيرة: "كيف يمكن أن يكون الحب خطيئة؟!"

"أليس هو ما يميزنا عن الوحوش؟"

تقدم رجل مسن، بصوت متقطع لكنه قوي: "كيف تقول ذلك يا بني؟ أليس الحب ما يجعلنا بشرًا؟ أليس هو ما أبقانا متماسكين طوال العصور؟"

ابتسم راشد بسخرية، وارتعشت شفتاه: "الحب؟! لقد كان قناعًا، وهمًا! لقد سلمت قلبي لملاك، فخانني. سلمت نفسي لعاطفتي، فدمرتني. الحب ليس سوى قناع نخفي خلفه أعمق مشاعر الكراهية. الغيرة، الحسد، الكبرياء، الجشع، الغضب... كلها تنمو من جذره السام."

وفي آخر الساحة، وقفت فتاة، ملاك، دموعها تحفر وجنتيها. تقدمت خطوة وقالت بصوت مرتجف: "راشد... أنت تخلط بين الحب وما فعله ضعفنا كبشر. الحب طاهر، لكننا نحن من نلوثه. نحن من نحوله إلى وحش، لا هو."

زمجر راشد كمن يحاول أن يسمع صوته وسط عاصفة:

"لا... أنتم لا تفهمون! الحب هو الذي يجعلكم تغارون، هو الذي يجعلكم تكرهون، هو الذي يفتح باب الخيانة. أنتم تمجدونه لأنه يغويكم. أما أنا فقد رأيت حقيقته: إنه أصل كل خطيئة!"

ارتفعت أصوات متضاربة بين الناس؛ بعضهم وجد في كلماته صدى لغصصهم القديمة، وآخرون تمسكوا بالأمل في الحب.

رفعت امرأة شابة يدها وقالت بلهفة: "لكن الحب هو ما يجعلنا نحلم! هو ما يدفعنا لنواجه المستحيل. إذا قتلنا الحب، ماذا يبقى؟"

أجاب راشد بعينين متقدتين: "تبقى الحقيقة! أنتم تخافون مواجهة ذواتكم من دونه. تتشبثون به كالأطفال بالسراب، لكنه ليس سوى وهم، وهم قادني إلى الجنون، وقادكم أنتم إلى الضعف."

اقترب خطوة من الحشد، صوته يزداد حدة:

"تخيلوا عالمًا بلا حب... عالمًا بلا غيرة، بلا خيانة، بلا حسد. عالم هادئ، صامت، نقي. أليس هذا أفضل من عالمكم المليء بالفوضى؟"

هتف شيخ آخر من وسط الجموع: "لكن يا بني، العالم بلا حب... هو عالم بلا حياة!"

تجمدت ملامح راشد لحظة، ثم ابتسم ابتسامة باردة: "إذن دعونا نجرب الموت."

وبحركة مباغتة، أخرج قداحة من جيبه، وعيناه تلمعان بهوس. صرخ بصوت اخترق الساحة: "لن أترككم تهربون من الحقيقة! ستعرفون أن الحب هو الخطيئة المميتة!"

في تلك اللحظة، اندلع لهيب من الجوانب الأربعة؛ لقد كان قد أعد كل شيء مسبقًا. ألسنة النار بدأت تتراقص وتعلو، وارتجف الناس وهم يتراجعون مذعورين.

صرخ راشد وهو يضحك كالمجنون: "هذا مصيركم! النار ستطهركم من حبكم!"

بدأت الأجساد تتدافع، والصراخ يعلو، ووجوه الناس تختفي بين الدخان واللهيب.

أما في قلب الساحة، ظل راشد واقفًا، يحدق في النار وكأنه يرى فيها خلاصه، بينما كانت عيون ملاك تبحث عنه وسط الفوضى، تتساءل إن كان ما تبقى منه إنسانًا... أم مجرد ظل محترق لخطيئة كبرى.

في تلك اللحظة، حين كانت ألسنة النار تلتهم أطراف الساحة، ظهر كائن غامض من بين الظلال والدخان. بدا كأنه يتشكل من نور وظلال في آن واحد، له ملامح جميلة وملائكية، لكن في عينيه بريق حزن غائر، كأنه يحمل ذاكرة آلاف القلوب المكسورة. توقفت الجموع عن الصراخ للحظة، كأن الزمن جمد من هيبته.

تحدث الكائن بصوت هادئ يشبه همس الريح: "راشد... لماذا تتهمني بكل هذه الخطايا؟ لماذا تخاف الحب؟"

ارتجف راشد، لكنه سرعان ما صرخ بمرارة: "لأنك أنت من جعلتني ضعيفًا! أنت سببت لي كل الآلام! أنت من قادني إلى هذه الفوضى! أنت الفخ الذي سقطت فيه حين ظننت أنني أعيش!"

اقترب الكائن بخطوات بطيئة، كأنه يمشي فوق اللهيب دون أن يحترق، وقال: "كان بإمكانك أن تسامح، يا فتى. كان بإمكانك أن تختار أن ترى فيّ النور بدل الظلام."

صرخ راشد بعينين دامعتين ممزوجتين بالغضب: "لقد سامحت... وثقت... آمنت أنك ستجعلني أتجاوز كل شيء. لكنك لم تستطع أن تجعلني أسامح نفسي! أنت الخطيئة التي هزمتني، أنت لعنتي!"

ساد صمت ثقيل للحظة، ثم رفع الكائن رأسه وقال بصوت عميق كأنه يصدر من قلب الأرض:

"أنا لست الخطيئة، يا راشد. أنا شعور، لا أكثر. الخطيئة تأتي من داخلك، من اختيارك كيف تستخدمني. لقد جعلتني ذريعة لجرحك، بدل أن تجعلني جسرًا للخلاص. بإمكاني أن أكون قوتك، كما يمكنني أن أكون دمارك. القرار لم يكن يومًا بيدي... كان دائمًا بيدك."

ارتجف راشد، وتخلخلت قبضته على السلاح. للحظة قصيرة بدا وكأنه طفل ضائع لا يعرف طريق العودة. نظر إلى الكائن بعينين مرتبكتين، ثم إلى الحشد الذي يختنق بين النار والدخان.

قال بصوت مكسور: "إن كان ما تقول حقًا... فلماذا أشعر أنني لم أحصل منك إلا على الخراب؟"

اقترب الكائن حتى صار أمامه مباشرة، مد يده كمن يعرض فرصة أخيرة، وقال: "لأنك لم تفتح قلبك إلا للنصف المظلم مني."

في تلك اللحظة، بدأ بعض الناس يصرخون: "أنقذونا! أنقذونا!"

التفت راشد إليهم، ثم عاد بعينيه إلى الكائن. بدا ممزقًا بين أن ينصت للصوت الجديد الذي يهز أعماقه، وبين صرخات الألم التي تحاصره من كل جانب.

رفع الكائن صوته للمرة الأولى بحدة: "الآن... اختر! إما أن تتركني أكون قوتك، أو تتركني أكون مقبرتك!"

الفصل السادس: الحقيقة

"الخيار؟!" قال راشد وهو يضحك ضحكة مكسورة أقرب للبكاء. "تقول إن لدي خيارًا وأنا محبوس داخل قفصك؟ لقد جعلتني غريقًا في محيطك، أتشبث بأي موجة من مشاعر أخرى كي أتنفس... ثم تأتي لتقول إنني مخير؟"

اقترب الكائن أكثر، عينيه فيهما هدوء غريب وسط اللهيب والدخان.

"لكن الحب يا فتى... هو القوة التي تعطيك القدرة على كسر القيود، لا تثبيتها."

ارتجف صوت راشد وهو يرد:

"كيف يكون قوة وهو من ساقني إلى هذا المصير؟ كيف أعتبره خلاصًا، وهو الذي سلمني إلى الألم والخيانة والعجز؟"

ابتسم الكائن بمرارة: "الحب ليس قوة ولا عجزًا بذاته... الحب، كما أخبرتك، هو مرآة. يعكس ما في قلبك. إن كان في داخلك كراهية، سترى الكراهية فيه. وإن كان في داخلك نور، فسينعكس أمامك جمالًا."

تراجع راشد خطوة، عيناه تلمعان بالغضب والشك معًا: "إذن أنت مجرد خدعة! مرآة تعكس عيوبي، ثم تجعلني أظن أنني أسقط بسببك. ما الفرق إذن؟ أليس هذا أسوأ؟"

أجاب الكائن بصوت أعمق، كأنه يتردد من كل أرجاء الساحة:

"الخطر لم يكن يومًا في الحب، بل في يدك التي اختارت كيف تستخدمه."

أطرق راشد رأسه للحظة، وصوته خرج متهدجًا:

"لكنك خادع... أنت أجمل الأقنعة وأخبثها. وجهك المضيء يخفي جحيمًا. الحب هو الخطيئة الأكثر فتكًا... لأنه يقنعنا أنه خلاص، بينما يقودنا إلى الهلاك."

الفصل السابع: النهاية

في تلك اللحظة، تجمد راشد وسط الدخان واللهيب، عيناه تتقلبان بين جنون ويأس. ارتبك قلبه وأدرك أنه يعيش في دائرة مفرغة من الألم، يدور فيها بلا مخرج. صرخ بصوت متشظٍ: "إذا كان الحب هو ما يقودني إلى كل هذه الخطايا... فماذا أفعل؟ أختار الموت بدلًا من أن أعيش في قفصه؟"

اقترب الكائن أكثر من بين ألسنة النار، ملامحه تزداد وضوحًا، وصوته يهدأ كنسمة غريبة وسط الحريق:

"لا، لا تهرب. يمكنك أن تهرب من نفسك، لكنك لن تهرب مني. ليس عليك أن تختار الموت... عليك أن تختار الفهم. الحب ليس عدوًا، بل هو معلم. هو الذي يمنحك القوة لتتحكم في مشاعرك بدل أن تتحكم هي فيك."

ارتعد جسد راشد، والدموع تختلط بالعرق على وجهه. ضرب الأرض بقدمه وكأنه يحاول كسر قيد غير مرئي، وصاح:

"لكن، لكن لم أرَ فيك إلا الخيانة! لم أرَ إلا ضعفي وانكساري! تقول إنك معلم، وأنا لا أرى فيك إلا سجانًا! كيف أتعلم منك وأنت من حولت حياتي إلى جحيم؟" قالها بصوت يشبه الهمس.

اقترب الكائن خطوة أخرى، عيناه فيهما بريق حزن عميق: "أنا لم أضعك في الجحيم. أنت من حمل جحيمك إليّ."

ارتعشت شفتا راشد، وأمسك رأسه بيديه كمن يحاول تمزيق صوته الداخلي:

"كفى! كفى أكاذيبك! إن كنت مرآة، فصورتك أقسى من أن أطيقها. أنت لست معلمًا... أنت الخطيئة الكبرى. وجهك الجميل هو القناع الذي يضللنا، ووراءه لا يوجد إلا الخراب. إذا كان الحب يعني أن أعيش في هذا العذاب، فسأختار الموت على أن أعيش في هذا الخداع!"

وبحركة سريعة، أخرج سكينًا صغيرًا من جيبه. لمع بريق النصل في وهج النيران، ثم رفعه نحو قلبه المرتجف.

تسارعت دقات ملاك، وتعالت صيحات الفزع. دفعت الناس بجنون لتشق طريقها نحوه، وصرخت:و"راشد! لا تفعل! أنا..."

لكن صوته غطى على صوتها، مبحوحًا، ممزوجًا بالبكاء:

"إن كنتِ صادقة، فلماذا لا أستطيع أن أجد في نفسي سوى الألم؟ أحبك..."

في تلك اللحظة، رفع السكين أعلى، عينيه ممتلئتان بدموع سوداء كالهاوية، وجسده كله يرتجف بين الاختيار والفناء.

خاتمة: دموع

صرخ الكائن بصوت ارتجف بين اللهب والدخان: "لا تفعل! أرجوك!"

لكن السكين انغرس، وسقط راشد بين ذراعي الأرض. ارتجفت الساحة كلها، وانهمرت دموع الكائن كأنها مطر يائس، تخترق ألسنة النار. همس وهو ينهار راكعًا: "لم أخلق لأرى الألم... لم أخلق لأرى الحب يدمر بهذا الشكل. أنا الحب، وأنا الأخطر... لكنني أيضًا الأمل."

ومع كل دمعة تسقط، كانت ألسنة النار تتلاشى. شيئًا فشيئًا غطى الصمت المدينة. لم يبقَ إلا الرماد، وجدران محترقة تروي حكاية يوم طبع في ذاكرة الناجين كوصمة لا تمحى.

رفع الكائن رأسه نحو السماء الداكنة، وصوته يتشقق كالأرض اليابسة: "أين ذهب الأمل؟ لم أكن أريد أن أكون سببًا في الألم. كان يجب أن أكون الخلاص..."

لكن فجأة، ارتعشت أنفاس راشد، وصدره الملطخ بالدماء تحرك ببطء. اقترب الكائن، وبداخل عينيه تمازجت الدموع بابتسامة عريضة غريبة، ابتسامة من يعرف أن النهاية لم تكتب بعد.

المدينة من حولهم صارت مجرد ذكرى مؤلمة. مات كثيرون، وضاع كل شيء تقريبًا، لكن بقاء راشد كان كجرس يرن في الفراغ: جرس يعلن أن الحب، مهما أدين، لا يزال يتنفس.

الفصل الأخير: الميراث

سكت العجوز فجأة. ظل صوته يعلق في أركان الكوخ، كأن الحكاية توقفت لتلتقط أنفاسها.

لم يكمل حديثه عن راشد... فقط قال بصوت مبحوح:

"كان ما يزال حيًا، يتنفس وسط الرماد." قالها متأسفًا. سرت قشعريرة في جسدي. نظرت إليه طويلًا، إلى عينيه الغائرتين في الماضي، إلى الشقوق التي تخطها الندوب على وجهه، إلى يده التي ترتجف وكأنها تحمل ذاكرة النار.

همست بخوف لم أستطع إخفاءه:

"عمي... أنت كنت هناك، أليس كذلك؟"

لم يرفع رأسه. ظل يحدق في الأرض، ثم قال بهدوء ثقيل: "لا تسأل يا سامر... بعض الحكايات تقتل من يسمعها."

لكن قلبي كان قد أدرك قبل لساني. كانت كل التفاصيل التي رواها — الألم، الرماد، الكائن، النار — كأنها ليست ذكرى، بل اعتراف متأخر.

العجوز لم يكن الراوي... بل كان البطل المنكسر الذي هرب من حكايته. لقد كان راشد.

اقتربت النسمة الباردة التي تحمل رائحة دخان قديم.

ومن الظلال، خرج الكائن.

كان كما وصفه العجوز تمامًا:

وجه جميل، لكن في عينيه حزن العالم. لم ينظر إليّ، بل سار نحو العجوز بخطوات خافتة، كمن يعرف الطريق منذ زمن.

قال بصوت خافت: "تركتك طويلًا يا راشد، حتى ظننت أنك نجوت."

رفع العجوز عينيه إليه، ولم يكن في نظرته خوف، بل تعب من نوع مختلف، تعب من حياة أثقلته بخطاياها. "كم كرهت الانتظار"، قال وهو يبتسم ابتسامة باهتة.

اقترب الكائن أكثر، جلس أمامه، صوته أصبح أقرب إلى الهمس: "كل شيء بمقدار."

أطرق العجوز برأسه، وبدت عليه رغبة غريبة في الضحك، لكنه تمالك نفسه.

مد يده المرتجفة وأمسك بيدي.

"تذكر يا سامر..." قال بصوت هادئ:"أن ما نحاول الهرب منه... يسكننا في النهاية." ثم أغمض عينيه.

تراجعت خطوة، أتنفس بصعوبة.

كل شيء كان صامتًا... إلا قلبي.

لقد أدركت الحقيقة — (الأسطورة قد بدأت بالفعل) —
لم يكن العجوز هو اللعنة، بل الحامل لها.

المحتويات

الإهداء ٥
المقدمة ٧
الفصل الأول: اللقاء ٩
الفصل الثاني: الذكريات المظلمة ١٣
اليوم الأول ١٨
الفصل الأول: ليث ١٨
الفصل الثاني: ندم وعذاب ٢١
الفصل الثالث: هروب من الذات ٢٥
الفصل الرابع: القرار ٢٧
اليوم الثاني ٣٢
الفصل الأول: البدايات البريئة ٣٢
الفصل الثاني: تشقق العلاقات ٣٥
الفصل الثالث: الفجوة ٣٧
الفصل الرابع: المواجهة الأولى ٣٩

الفصل الخامس: الهاوية ٤٢
الفصل السادس: الفراق ٤٧
الفصل السابع: المواجهة الأخيرة ٥٠
الفصل الثامن: الندم الأخير ٥٤
اليوم الثالث: "الكسل" ٥٦
الفصل الأول: حياة بلا طموح ٥٦
الفصل الثاني: مسابقة الكسل ٥٩
الفصل الثالث: السقوط في الكسل ٦٣
الفصل الرابع: الانهيار الصامت ٦٥
الفصل الخامس: النهاية المأساوية ٦٧
الفصل السادس: النهاية ٦٩
اليوم الرابع ٧٠
الفصل الأول ٧٠
الفصل الثاني: الجذور الدموية ٧٣
الفصل الثالث: اضطرابات ٧٦
الفصل الرابع: المواجهة النهائية ٧٩
الفصل الخامس: سقوط الملك ٨١

الفصل السادس: العواقب المأساوية ٨٣
اليوم الخامس: "رقصة الدم" ٨٥
الفصل الأول: عالم الظلام ٨٥
الفصل الثاني: الانزلاق ٩٠
الفصل الثالث: من الظلام ٩٣
الفصل الرابع: المؤامرة ٩٥
الفصل الخامس: رقصة الدم ٩٩
الفصل السادس: الفوضى المميتة ١٠٣
الفصل السابع: الخاتمة – الموكب الأخير..... ١٠٧
اليوم السادس: الكبرياء ١٠٩
الفصل الأول ١٠٩
الفصل الثاني: مرآة الأب ١١٤
الفصل الثالث: إلى القمّة ١١٩
الفصل الرابع: القفص ١٢٢
الفصل الخامس: الكفاح ١٢٥
الفصل السادس: المرآة تتشقق ١٢٨
اليوم السابع: اليأس..... ١٣٣

الفصل الأول: الفوضى ١٣٤
الفصل الثاني: الانهيار ١٣٦
الفصل الثالث: الفخ ١٣٩
الفصل الرابع: السقوط في الهاوية ١٤٢
الفصل الخامس: النهاية ١٤٥
اليوم الثامن: الطامة ١٥١
الفصل السادس: الحقيقة ١٥٨
الفصل السابع: النهاية ١٦٠
خاتمة: دموع ١٦٢
الفصل الأخير: الميراث ١٦٤